ما كتبه على حجر البهت

مختارات شعرية

عاشور الطويبي

ما كتبه على حجر البهت

شعر

عاشور الطويبي

أركنو للطباعة والنشر

طرابلس، ليبيا

لوحة الغلاف: عاشور الطويبي

الواوْ

كلّ حجرٍ في الواو، أغنية في صدر الرمل

كلّ رجفة غصنٍ حطّ عليه طائرٌ، أغنية في صدر الليل

كلّ دربٍ خطّه النملُ المثابر، أغنية في صدر صيّاد غريب

كيف إذن، أفهم دويّ الطبول وراء الجبل؟

كيف أرى عريها الشاحب في الشمس؟

كيف تنهض من موتها السحبُ والنيران؟

*الواو: الواحة الصغيرة.

صباح طرابلس

لقد رأيتُ ماءً يسقط من أسفل
رأيتُ بيضة تفقس في ماء مالح

رأيت ظهرها، إذ نحن عند حاشية الجرف،
برقاً يلمع كان
وله شميم القرنفل في صباح طرابلس البعيد!

لا يلتفتُ الوقت إلا لخازن الحكايات
أو لرضيع يضحك في البراري.
حين لمحتها، كانت تتقلّب على الأكفّ، تطلب الوصل
ليس أكثر من نفرة فرسٍ ونواح درويش في حضرة

كنتُ أسمع شهقتي وشهقتها تكبران
كنتُ اسمع آهتينا على حجر في أول الدرب

الصمت يراود البحر
الموجُ يعلو كلّما هزت الريح، ثنيةَ الفستان الأزرق
لقد ضجّت البيداء باللذّة العظمى!

يستقيم الظلّ وتهرب السحالي

لن يخرج من الصحراء بعد!

ليس قبل أن يستقيم الظلّ وتهرب السحالي

عيدان طوّحت بها ريح شرقية، أخذتها من فم غصّ بالكلام

خرّ المطرُ أمامها ساجداً، نقل الغيم أخبارها إلى التلال والوديان

كانت كلّ صباح تجمع الضحكات، ترتّق أخيلة وتحدّق في أوّل القادمين

ليس بعد! يقول الذي رافق العطش فيهم صغيراً وخاطبَ دبيب الأرض

لم يكن سيفاً ما رفعه في وجوههم!

"للحم الحمل الصغير طعم المرارة." قالت أمّه

"ماذا عن لحم السجين في الزنازين؟!" سأل

"ستعرف هذا بعد حين." قالت أمّه

متى تتوقّف القوافل عن المجيء إلى هذه الصحراء الملعونة؟

حين تنشق في جسد السماء عينها؛ ترفع الغزالة قميصها المضرّج بالدم علماً

حين ينهض النائمون، الميتون؛ تنهض الجهات

حين يفتح كلّ جدار فمه؛ يفيض الكلام

حين تقول الأرض لقد اكتفيت؛

لا مزيد، لا مزيد!

وجه البحر

أضع يدي على وجه البحر!

أمشي على الشطّ، تتبعني السلطعونات

تتبعني خنافس البرّ وخنافس البحر

لن ننظر إلى أعلى فتلسعنا الشمس

لن ننظر إلى أسفل فيجرفنا الدوار العظيم إلى شقّ في الجبل

هواي الذي حميته بالطين، سيخونني يوماً

اقذفُ به في النار وانتظر ساعة الحمحمة!

سيخرج من طيني قوم لن أحبهم ولن يحبوني

سأرميهم بالحجارة والكلام البذيء

لكنهم سيقتلعون رأسي وعينيّ

سيقتلعون هواي سيقتلعون بصيرتي

سيبنون عليّ ضريحاً كبيراً

يجعلون من جسدي حقل فول

ويغلون الماء في القدور

لكنهم

سينسون إسمي الذي وهبتهم لهم

سيرفعون رأسي راية لهم

ضفادع الكلمات

السرير، فيه تصحو وتنام الكائنات

يجلس على السرير، يشير بإصبعه:

هنا زرعتُ الحيرة في الطين،

هنا تنهض بين الجذور ضفادع الكلمات،

هنا تغيب الأفكار في زرّ ياقتي.

لن يلتفت أحدٌ منهم

لن تلتفت واحدة منهن إلى ملكٍ ثرثار

هذا وقت حلب البقرة! يقول الخادم

هذا وقت خِصاء الرجال، يقول الملك؟

ألم تشرق الشمس من سرير يشبه هذا السرير؟

هذا سرير تغرب فيه الشمس ومهمه الغريب!

كانت السنابل أولى النباتات التي نزلت منه

كان لها ألسنة وأسماع تقرأ بها الليالي

الماء حصيرة والحجارة أبراج السراب.

حسبك وحسبي شرائح خبز بالزبدة وصباح ندي عادي!

مَن وضع الكرسي أمام الباب؟!

أصابع الجنود

أصابع الجنود الموتى، ما يصل إلى السماء

الجنادب تقفز في عالمها لا تنظر إلى أعلى

حتى الأشجار التي أخرجت صمغها، اهتزت أوراقها قليلاً

في الحقول البعيدة، يقولون:

الليل زارع حنطة

يمدّ أطرافه المبلولة إلى قناديل معلقة على أذرع النائمين

لا يدخل البيوت التي تتبادل الضحكات خفية

لا يميل على القرى أسفل التلال الرطبة

فقط العجائز حارسات البيوت من يحكْن

لليل قفطانه

للنهار العجول طاقيته البرّاقة.

كيف نبيع السماء لميت في الوادي؟

كيف نكتب على آماقها بالإبر حكاياتنا ولا ترمش لها عين؟!

كيف تجعل السماء من البحر سارق نار ومن النهر بوابة للأحزان؟

لكننا، تقول العجائز الحارسات، نلتقط ما يتساقط من أصابع الجنود الموتى

نضع الألواح في التابوت العظيم!

الشمال الأفريقي

أجلسُ في هذا الركن، على حافّة الشمال الأفريقي،
نافذتي مقفلة، الباب المفضي إلى الشرفة مقفل،
فقط أصوات البحر، كأنه يبكي، كأنه ينادي على أبنائه الضائعين!
ثمّ ماذا؟ لا شيء، الموج يعلو كما موسيقى مقام الإصبعين
فيرشّ بائع النباتات العطريّة العطر أمام دكّانه
يمسح بكفّه الناعم الشرطي شريطاً فضيّاً على ذراعه.
في الأزقّة الضيقة للمدينة الملعونة، تتناسل ظلال تأكل البقلاوة ومخروقة القاضي
لا أحد يخبرنا من أين جاءت حواء علجية، لماذا تدخل البيت العالي خفية
وحيدة تفوح منها أزهار الشفشي والجداري!
هاتِ يدكِ يا طفلة
أرى ما يسكن على كفّك الناعم الرقيق!
ماذا نسيتِ في خزانة أمّك في غدامس، يا طفلة؟
دمية قدمتها إلي مطربة الأفراح ومكحلة بحجم نواة بلح.
ستحملين بحرا وتمشين في حديقته سمكة ملكية

كاف الجن

الكافُ جبل تسند ظهره الجِنّ

الكافُ منيٌّ إله طرحه في بيداء شاسعة ومفازات موحشة

صهيلٌ حارّ في صدور خيل تقطر من قوادمها الدماء

الكاف أيضا رعشة غرمول في قصبة طريّة

لكن لا تحسبنّ أن:

الرمل كافٌ، الندى كافٌ والقتلى في الوديان كافٌ!

اضرب بيدك على صدرك أو اطرح كلماتك في البحر كما تطرح امرأة وليدها!

هل تشعر بالألم يسري بين السرّة وصاحب التاج؟

ذلك هو المكنون في البرّية

المكنون في كل كاف قطّعته النمال عند الغسق!

قال الذي أتى بالأخبار: لقد وجدتُ في الماء ثقباً وفي الرمل ثقباً

-هل دخلت في أيّ منهما؟

-لا، لم أدخل لكني تبعت شمساً صغيرة

ثم صارت تكبر وتكبر

رأيت كلّ ما حولي يحترق،

الجبال تتهشّم كما يتهشم الملح

ثمّ كان ظلام يلفّ كلّ شيء، فمشيت

إلى أن رأيت ناركمّ!

الزنزانة

ذاك ما يفعل السجين في زنزانته،

ذاك ما يفعل الغريب في منفاه

ذاك ما يفعل الهارب أينما أخذته أرض أو سرير شهوة

كلّما لمحتُ رجفة ورقة على غصن

أو سمعتُ آية في برية، عرفت

أن الكلمة القاتلة في ناب ذئب

أن السفينة قد ترنّحت على قرن ثور

أن الفيافي في وجدانها انطفأ فتيل السراج

هذه أصابعي غرستْها الوساوس في ماء الدهشة

كيف أطلبها؟

المسارات تعشبتْ بالجبن والبخل والدماء

ويح قلبي!

أهذا كلّ ما تبقّى في قِدر الأبدية؟!

بازلّاء

أنت
حيث وقفت في الدائرة!
السهمُ الذي لا يرتدّ
عينه في الديجور
النهرُ الذي لا يتلوّى
لم يبلغ رشده بعد

لن أقوّس السؤال على حبّة بازلّاء
لن أجلب السكارى إلى بستان في الخلاء
سأكوّر يديّ وأشرب القهوة باردة
سأتبع رائحتها إلى حيث ترحل
لعلّي أجدُ سلّماً يفضي إلى دهشة الكائنات
لعلّي أقبض على أثر الأرضة في بيت الدائرة

الآن أرى عازف الغيطة
ذاك الذي يرقّص بإصبعين غربال الكون!

بحر صبراتة

كلّنا نأخذ من السماع ما يلي القلب
أمّا ما ابتعد أو خالف أو نفر
تلك ساحة قومٍ يعرفوننا ونعرفهم

أذكُر كيف وقفتُ يوماً أمام بحر صبراتة
قدماي الحافيتان تلمسان رمل الشطّ
تلمسان نبض أعشاب أتت من مكان قصي
هل كنتُ اسمع البحر وأمواجه الهادرة؟
أم أسمع ما يتشرّب جلدي من موسيقى ذاك النبض الخفي؟
لم تكن في شكل لحن ولا في شكل كلمات
كنتُ واقفاً حيران ينصتُ، حين مرّت طفلةُ
تلوّح بيدها في الهواء إلى شيء لا أراه
طفلة ألقت مرساة ضحكتها العذبة
تحت قدميّ الحافيتين ومضت
تركض خلف أمّها
خلف فستان يفوح من ثنياته العطر والأنبياء.

جناح نورس

"أيّنا مدّ الظِلّ وأيّنا حجبَ؟!" قالتْ ثم استدارتْ ناحية البحر

زبدُ بحر غير بعيد، رقّة جناح نورس وخميرة في دورق فخار

"أعرف كيف أعدّ أنفاس الموج!" قلتُ وقد وقفتُ لأذهب

"كيف تفعل ذلك؟" قالت وقد استدارت ناحيتي

مثلما تخرج الزبدة من الحليب، الخمرة من العنب، الدمعة من الشجرة،

الصبر من الحجر، القول من الأذن، النار من الهشيم، الشوكة من الرمل،

الليل من القمر، الشمس من القنديل، اللحن من الطين، الطائر من الشهقة،

البحر من الصدفة، السماء من الجلد، الثور من النير، الطاحونة من الخوف،

المطرقة من اليد، الجرح من القدم، التين من الزيتون، الشال من المقصلة،

الميت من الحي، النهر من العين، العشّ من البيضة، الفوق من التحت،

الفرس من الصهيل، النواح من الألم، السكينة من الشاي، الرغبة من الكفر،

الريح من الكهف، الملك من الملك، الشعب من الغفران، اليوم من الغد،

الأمس من النسيان، الصوت من الرقص، الشيء من الشيء، الشيء من الشيء.

ظهر سلحفاة

لا فكاك!

تبدأ الأغنيةُ قطرة ماء على ظهر سلحفاة

ثم تكبرُ وتكبرُ حتى تصير ذاكرة هشّة في قلب حجر.

الحامل في الأولى والحامل في الآخرة واحدٌ!

كلّ يمدّ

على الأرض بساط لحنه

على السماء جناح لحنه

ما تحمل بين كفيّك يا رجل؟

أحمل ريحاً خؤونة وبدراً مشقوقاً

ماذا أيضا؟

راية حرب قديمة جديدة

رسالة من جندي ميت

نواح أمّهات من قرى منسيّة

هل تكفي كفّان لكلّ ذلك؟

ألا يسكن الله في حرف وفي إيماءة؟!

قبر بجناحين

قبرٌ بجناحين أم قبرٌ بين ضلفتي باب؟
المياه التي سالت بين أخفاف الإبل
جفّت
الحجارة التي راقبت القوافل تختفي في السراب
شقّت قلوبها الأحزان
التنانين حضرت عرس الراعي
صدحت عالياً بالغناء
البلاد شهوة كثيب
البلاد رشفة غزل في مسبحة

حسب الراحل
مصائد فمها مفتوح على الوهم
وترٌ رنينه الريح

حسب الراحل
أن يجلس على حجر وينتظر القافلة
أن يشعل النار للغرباء
أن يَسأل ولا يجيب
أن يحمل قلبه بين سبابتين

سترة الليل

سترة الليل

صمت تدحرجه الكائنات بين أقدامها

كلّ يأخذ حاجته

حاجته بين يدي بائع التين

كلّ يجد سبيله

سبيله بيضة رخّ فوق جبل

لا يستنير أحدٌ بليل

لا بشمس جاءت في غير وقتها

خُمارُ السكران مرتقاه إلى الغرفة العالية

لعازف الناي رنين يرتطم بحجارة الشارع

للعارف مِزقة من فستان الكون

للجاهل مِزقة من فستان الكون

الكلّ عريان والبحيرة عميقة والكثيب عالٍ

لا تضع سلّمك على أرض ترتجّ

لا تضع التفّاح في سلّة ترتجّ

الزلزلة لا عين لها حبيبي

الوسنان لا صوت له حبيبي

دفتر شجرة الزيتون

لشجرة الزيتون دفتر؛ فيه تاريخ الزيت وتاريخ الساقية.

سبع آيات وضعها المسافر، على رمل الشاطىء.
سبع وشوم وضعتها العجوز، على دانتيلا العروس.

في الصفحة العشرين:
نزلتْ على مهل من هضبة العشاق،
رشّتْ بالورد والزنبق فم الوليد وفم الوليدة.

في الصفحة الخمسين:
كلّ الذين ذهبوا إلى الحرب ماتوا، كتبوا أسمائهم على حجر غرانيت
وتركوا أحزانهم تمحوها الريح والمطر.

الريح عادت في الصفحة المائة:
مجروحة ومنهكة بلا ذاكرة ولا لسان.

أصداف على الرمل

عيون قناديل البحر تتبع الحيتان إلى كهوفها.

تبصرُ لها كيف تقبض الأصداف على رمل وكيف تبيض أسماك السلمون في منحدر الماء
تبصرُ لنا متى نقلع عن خمرة الأعناب وعن عري الحكايات المنسيّة.
هذا جدارنا وذاك جدارها ولا باب!

في نوم الأعشاب، الأحلام القاتمة تقترب من سدود الكلام.
في راحة الصيّاد، مسكن الحجارة المثقوبة وأغنياتها، سرب حمام يحلّق وديك يصيح فوق مزبلة.

تقدم أو عُد إلى حيث يهدأ ماء النبع أو يتلظّى بناره القمر.

لقد وضعوا الميت على خشب وأوقدوا النيران.
لقد وضعوا الحيّ على حرف ووقفوا ينظرون إلى الزلزلة.
لقد كان كلّ واحدٍ يحمل في يده مرآة.
لقد كانت الرؤوس تغطي ساحة الأبطال!

فراشات وحشية

الظِلّ، هذا التابع الأخرس، ضعيف وهشّ،
يمكنك أن تمرر يديك عبره وفي العتمة يهرب في رمشة عين.

النور، هذا البصّاص الأخرق، يفتح الناس له بيوتهم.
لا ينهض من مكانه، الرغبات الوحشية تأتيه.
الأيام تخرج من ياقة قميصه، مثلما تخرج الفراشات من شرانقها المعلقة على الأشجار.

لا يوجد الكثير ليُقال عن الأشياء والكائنات.
لا الشعر يقدرُ، لا الغناء، ولا الأحلام!

هي نفخة تدوم في الهواء،كما يحدث الآن تمامًا.
لا تفكّر في الأمر كثيرًا،
انظر أمامك وامضِ إلى كينونة شاحبة!

الشجرة تعرف

صوت أو لعلّها ضغطة يدٍ خفيّة ما يُسقط أوراق الأشجار.
الشجرة تعرف وهي تقف قبالة الشمس والليل والريح.
الشمس تأخذ دفئها، الليل يأخذ وحشته،
أما الريح تضع سريراً تحت كلّ ورقة، فلا جراح ولا نزف ولا دموع!
بعضنا يسميها حلقة الخلود،
بعضنا يسميها لهب الطين يذهب إلى جمرته،
آخرون يقولون أنها رغبات نويرات تنوء بالأسرار،
آخرون يقولون لا، لا هذا ولا ذاك.

انظر تحت قدميك،
إن رأيتَ عشبة فتلك صيحة روحك،
إن رأيت حجراً فذلك صيحة قلبك المقهور،
إن لم تر شيئاً فأنت في البرزخ لا تعلم أيّ أرض هبطت!
اجمع خرافك يا راعي الشهوات،
خذها إلى الحقل وخذ مقعدك فوق الصخرة العالية.

ثوب الزمان

أهكذا إذن تقبض على الريح؟!

نحيك لها ثوبا مثلما نحيك للزمان ثوباً.

وكيف يكون ثوب الزمان؟

له رقّة السعف وعبق العشب البرّي،

البراعة ليست في الإبرة أو المخيط،

بل في طرح الأنفاس في الخلاء في ليلة مقمرة،

ثم نسقيها بما ينزّ من أشجان الحجارة ساعة قبل الفجر،

ثم نضعها على سلك أوله في جبل النحاس،

آخره لا أحد يعلم آخره،

ثم نتركه حتى يجفّ ثم ننخله بين ساقي امرأة حبلى،

ثم نأخذه فنطحنه على مهل بين حجري غرانيت،

نصعد به إلى بيت في أعلى الجبل،

نتركه حتى تأتي الريح فتنسفه نسفاً،

نجمع ما تساقط منه،

نغطيه بقطن مصري نغرز فيه الإبر ،

نحسب كم إبرة،

بعددها نحسب الزمان!

الغرفة العالية

كنتُ أقفز في الماء وكانت تقفز في الماء.

كنتُ أحمل على ظهري قمر أغسطس وكانت تحمل بين يديها دانتيلا الغياب.

مَنْ قطع جسد اليوم وأخفى أسماء الكائنات؟!

كنتُ في الساحة أرفع يديّ عالياً وكانت تطلّ من نافذة الغرفة العالية.

أين أضع كلّ هذه الآهات؟

تحت أشجار الطلح أم في فم الذئب أم في رغوة ماء فوّار؟

كنتُ أقتفي اثر سارق النار على كثبان القبائل وكانت تمسحُ بشفتين اثر قبلة وحشيّة.

لقد أينعت أزهار الخروب وأنا الغريب، عطشان نعسان!

الرمّان الضاحك

الغريب يحمل شمساً على صليبٍ.

في أطرافها قرى ومدن، بيوت وشوارع وخلق كثير.

يقف الغريب في كهف عميق.

أمامه تبرق الكلمات والأوهام وتحت قدميه يلتقي النهر مع حجر الضحك.

في غصن الشجرة قوس ونشّاب.

الرمل مبلول بالدم الرمل مبلول بالفجيعة.

الشرطة جاءت، جاء المحققون جلسوا أمام الغريب.

مسح الأطباء والمخبريون جسده، أخذوا ما أخذوا ورحلوا.

لكنه سقط على الأرض، ذوى كنفخة هواء في الخريف!

بيتها الزلزلة

"الأقدام تسبق الموسيقى." يقول العجوز وهو ينزل المنحدر
انظر كيف ترقص الأشجار، كيف تميل كتفا بائع الجيلاطي!

"هل تعلم لماذا يأخذ الغبار وقتاً حتى يصل الأرض؟" يسأل العجوز تحت شجرة السدر.
عليه أن يعزف اللحن الأخير
عليه أن يرقص الرقصة الأخيرة.

الغبار لا يهدأ له حال،
الغبار حيوات تعلق في الهواء رغبة في الانتحار.

بيتها الزلزلة وقفطانها درجات السلم الكبير
"حذائي البني هذا، اشتريته من بائع بصل؟" يقول العجوز وهو يضحك

وتر العشيّة

حياة الجدجد عالقة في وتر العشبة؛
إن تقدّم سقط سقف الليل، إن تراجع إلى الوراء!

تمتلىء الساحة بالراقصين والراقصات؛
غزل دافىء يغشى الأرواح، على مهل تقترب السكينة من الجالسة،
تمسح بقدمها الناعمة سطح الماء.

لنسمع عازف البيز!
بكاء حارق في اليدين الثقيلتين.

تميل الأحزان، مثلما تميل
ساعة الحائط تحتها سكران حيران يبتسم.

هات شريحة الجبن يا سائق الحافلة،
هات أنفاس الليل وجلبة النهار،
هات رعشات الجسر، رعشات الواقف على الجسر.

الليلة سيأتي القمر،
سيقف هناك وحيداً حزيناً

ألم على جبين الشاعر

ألمٌ آخر، على جبين الشاعر الشاب!
أهكذا تسقط الشعارات في الساحات؟

لقد وقف أمام البحر طويلاً،
خطّ على الرمل أشجان القصيدة المستحيلة.

أخفاها حين مرّ الشرطي،
أخفاها حين مرّت سكرتيرة المحكمة
أخفاها على السلطعون الكبير والسلطعون الصغير.

ليت الكلمات كالأشجار تخرج أوراقها من الظلمات!
ليت حجارة البحر لم تكن شديدة القسوة!
ليتني أقدر أن أكون خاطف أحلام الجوعى المقهورين!

هذه القصيدة النحيلة،
سأقذف بها من أعلى سور المحكمة،
سأرمي بها على وجه الشرطي الكئيب
أو
لعلّي سأطعمها للسلطعونات النهمة!

البشارة

البشارة تأتي من فم طائر أخضر الجناحين.
للنملة الجديدة، أزهار الأقحوان غابة كبيرة.

عينُكَ حيث تضع قدمكَ.
هل ترى قفزة الضفدع
أم ترى نصل العشبة يلمع تحت الشمس؟

في الحلم الغابة رجال ونساء وأطفال خائفون!

قد تأتيك البهجة في شكل إصبع حلوى
قد تأتيك في شكل نسمة باردة فوق دراجة هوائية

عينُكَ حيث يأخذك السماع.
الجدار يعلو حجرا فوق حجر؛
هكذا يكون اللحن في البريّة: نغمة فوق نغمة أو تجعيدة فوق تجعيدة.

عينُكَ حيث تقبض بيدك على قطرة مطر.
الطين المبلول يرتجّ في قلب كمأة،
سيقان أزهار الأقحوان تميل تحت ثقل خيط ضوء نحيل.

كثيب الرمل

بيتي فوق كثيب رمل؛

يكثر على جانبيه السعف والحصى، أحلامه تتدحرج ناحية الشرق.

يروق لي مثلما يروق للعابرين، أن نتوقف ونرمي السور بحجر.

بيت الثائر على مقصلة؛

يكثر على جانبيها الصمت والأبدية الرشيقة.

يروق له مثلما يروق للموتى، أن يتوقفوا ويرموا السور بحجر.

بيت الشاعر على سنبلة؛

يكثر على جانبيها المرابون والجوعى.

يروق له مثلما يروق للسكارى، أن يتوقفوا ويرموا السور بحجر.

خطوات منسيات

تتبع المنحدر الصخري، وحيداً إلا من طائر يحلّق

غير بعيد وسحابة بيضاء شتّتْها ريحٌ،

قد تكون أتتْ من صحراء خائفة أو من بحرٍ غدّار!

كيف تأخذك خطوات منسيّات إلى ديار ليس فيها غير العذاب؟!

تتبع الدرب المعشّب وحيداً إلا من قنفدٍ جوعان

وبقايا طعام لمسلّحين غطّاهم ليلٌ موحشٌ،

أتى من بندقية فتى أو في طيّارة مسيّرة

كيف ترفع يديك مستسلماً لقاتلٍ وقتيلْ؟

هو الفزع الأكبر إذن، يقف في أوّل الطريق وفي آخره.

البحر قريب يا غريب! تقدمّ وحيداً، ادفع بالكلمات الخرساء

اطرحها على الحصى عارية، وانتظرْ راية تخفق أو قبسة نار!

تقدّم، هل تسمع صهيل الخيل في الوادي؟

هل تسمع خرير الماء بين الصخور؟

هل تفهم كيف تتبدّد ثياب الموتى في الفيافي الآن؟

الحصان

الحصان في حظيرة، الحظيرة في ذيل شهاب خاطف
الأوراق في جبأة في بيداء، ينتفض الغبار، يصعد في انعكاس الضوء
فساتين النسوة الواقفات في الماء، صفراء، حمراء، خضراء. زرقاء....
الجالسون في العربة الخشبية، ضحكاتهم خفيفة
نافخ البوق عطشان، نادلة المقهى نعسانة،
أنت الذي لم ير الوردة تتفتّح ولا عبيرها يملأ خزانة العشيقة
لم ير العصفورَ يحلّق بجناحيه المزركشين فوق شجر العرعار.

قلتَ لي: رأيتُ وجوه قتلاهم وسمعت أنفاسهم تذوي في بريّة وحشيّة
لكني نسيت أن أضع النجمة الأرجوانية على أخمص البندقيّة
نسيت أن أحفر خوفهم، شغفهم، جبروتهم في خشب محرابهم.
هل تعرف كيف تشرق الشمس بلا موسيقى؟
أليس تشرق من جبل على رأسه طبل وأجراس من حديد!

على التلّ

كائنات الغابة تفرّ من الغابة!

البيوت البيضاء على التلّ، تلوح كسرب إوزّ في طريقه إلى الجنوب

الأعشاب تنبت على الجدران، يكفيها زفير غيمة عالية،

يكفيها أجساد منهكة تقترب بطيئة من القمر،

يكفيها سراب معلّق على حجر، في أرض جرداء،

حجارة تلمع تحت شمس حامية،

عويل ذئب ابعدته الذئاب.

لقد وصل الجنود إلى القلعة ليلاً،

وصلت البغايا إلى القلعة ليلاً،

سينهمر مطرٌ باردٌ على القلعة ليلاً،

ستضرب الصاعقة القلعة ليلاً

لناكل معاً حساء الفجيعة صامتين

لقد ذرّتْ أشجار البرقوق أحلامها في الريح،

لقد عادت السناجب إلى بيوتها في الأعالي

امتلأت شِراك الصيّادين بالظِلال.

حيث يكبر المطر

هل ترى العالم في رأس الحلزون؟
هناك حيث يرقد العجوز والقطّ الأربش في النافذة
تحت الغيمة السوداء حيث يكبر المطر.
على الرمل حيث تضع السلاحف بيضها،
عمياً يخرج الصغار، يركضون إلى شميم بحار بعيدة
تقطع السماء من جسدها أزرار الليل.
على الصخر تنام الوعول وبقر الوحش تحدّق في الشمس
في الصحن الخشبي تنثال هشّة رقيقة أحلامُ النحل
حزينة ذكريات المقعد، عصيّة شهوات الشجرة.
يقف العازف مقلوباً، على الألحان أن تنهل من عين الألم
عُري الكهل يفترش الأريكة، يبقّعها بالأبيض الشاحب
يلتصق الوله بالجدار كنارٍ على عود قشّ،
هذا هو الصمت العميق،
لن تجد الوديعة في بيت الفراشات هذه الليلة
لن تجد صحن الأرز على طاولة المطبخ هذ الليلة.

الغريب وكأسه

تنزلق الأحزان على جسد الغريب، مثلما
تنزلق أسراب النمل على صفيحة زيت
هكذا تموت الأشواق، بلا ظلال ولا أسماء.
لا بدّ من الرحيل، ألا ترى اهتزاز طائر القصبي على حبل الغسيل!
لا بدّ من ملء الثقوب في قلوب الحجارة، في قلب الغريب وكأسه.
غابة البطّوم رجع أصداء الذئاب، رجع أصداء حفيف
الأشجار العالية، هناك فوق التلّ العالي
ألا ترى الشمس عطشانة والوادي عريان؟

الزجاج كلّما حاول أن يعكس حنينه للكثبان
تنهض في خاصرة الليل ألف وردة
حزن كبير بين يدي عازف يرمّم بالصمغ أغانيه المكسورة.
مطرٌ غزيرٌ يسقط، وشوم على الحجارة تلمع
لقد كان على الوشم أن يكون بألف عين وألف لسان.

حجر النبوّة

البحث دائماً

عن تلك الشهقة في الصدر

أو عن ذلك الكسر في حجر النبوّة

أو عن طمأنينة النويرة في شهر مارس

أو عن جريان النهر في عباءة الليل

أو عن رفقة عذبة في طريق موحش

أو عن رفّة جفن عاشق سهران

أو عن نعومة جلد حرباء في بستان رمّان

عندها أكون الظلّ الممدود والرقّ المنشور

عندها يستكين الموج وتهدأ ارتعاشة الزعنفة

عندها تضع العاشقة رأسها على صدر حبيبها

عندها تأخذ السماء زرقتها

الأرض كرّيتها

الكائنات ظلالها

إلى شجرة فوق جبل

أو إلى مطر غزير

أو إلى هنا، إلى هذا القلب

الغياب يا أخي

صباح آخر من أيام حرب العنز الباردة،

وأنت مضيت بعيداً في الغياب يا أخي!

ما الذي تبقّى من الحكايات؟

رأيتُ كيف تذوي الضحكات،

كيف تذوب الأحزان في القلوب!

لقد أخذوا العباءة، الجسد، ووضعوا اسمك على قبّة جامع

أخذوا ابن تيمية، ابن الجوزي، ابن القيّم، وابن عاشر

فوق عربة يجرّها رجل من رجالك

غسلوا السجّادة بماء البحر،

غسلوا البحر بماء الدمع،

غسلوا التراب بالصمت .

هكذا تركتَ في وصيّتك!

ليلة طويلة باردة!

خذ تينا أسود غَرسه جدّك، وعرجون بكراري

ثمّ امضِ إلى نجمة قريبة في السماء!

قريتنا، في سرّتها حبل من ذهب

قريتنا، لو وقفت على قوز رملها، ماذا ترى؟

أرى ضريح الوليّ الجوّاب، ترفرفُ عليه مناديل بنتيه وآهات العاشقات السائحات.

أرى قباب بيوت طينية تنقرها طيور خضر وصفر.

أرى أصابع نسوة محنّاة،أرغفة تنّور ودهشات تتدحرج في الضحى.

أرى فرس الشيخ ، دلو البئر وأكواز ذرة خضراء في آخر الحقل.

ألا تنظر إلى أعلى يا رجل؟!

لستُ في حاجة لذلك، سماؤنا تسكن في شقوق الأرض.

شهوات

الشهوة، شجرة تين على شفة جابية ماء!

الشهوة أوبة هدهد إلى بيته،

في فمه حبّة خردل وتحت جناحيه أغنيات الغائبين!

كان ظلّ السنبلة أطول من الرجل ومن بكرة البئر

كانت قبّة الوليّ بيضاء كالنهار

كانت يدُ الصبي قريبة من السماء

كان حقل الفول المزهر يرقص نشوان

كان شجن الصبّار يفيض على لوح من طين.

غبطة القباب

تنحني القبّة من الغبطة
تُدلّي عصفورها إلى خلاء مطمئنّ.
إليها تجيء السواقي وتحتها تزرع البنات حبق الغواية.

في قرية القباب،
دائماً يأتي الصباح على جنب.
aفي قرية القباب،
يمشي الديك ملكاً.

الحلازين في قريتنا، كثيرة وكبيرة
كلّ صباح، تصعد التلّ
تتنصّتُ على الماء يسيل تحتها
وإذا علت الشمس مقدار إصبعين أو يزيد،
تنزل إلى الحقول، تفلق الحَبّ،
تضع ما رقّ وفاح على صدورها
وتضع ما تبقّى في خزانة عامل الملك.

قفطان أخضر

الدرويش في قفطانه الأخضر، تحت القمر المشقوق،

يقول، أنا الطائر الضحّاك

أهِبُ لكلّ كائن ريشة، يغمسها في بحرٍ لجّي.

يقول، أنا الطائر الضحّاك

لماذا كلما أمدّ رجليّ ترتجف الأسماء في البرية؟!

لماذا كلما أصعد سفينتي يتبعني قمر أزرق؟!

أهذه بداية أم خاتمة الأغنية؟

أهذا هو النهر الذي يخرج من فسيلة نخلة؟

حدّثتني أشجار البطّوم وكان بيتر بروغل الأكبر يسمع!

إلى الروائي العراقي صموئيل شمعون

*بيتر بروغل الأكبر 1526–1569، رسّام هولندي.

أشجار البطّوم جاءت بالخبر

أشجار البطّوم جاءت بالخبر، قالت:
رأينا ثقبا في السماء، لم يكن ضيقاً لا تدخل الإبرة فيه
ولا واسعاً تدخل فيه الغابة وأصوات الغابة.
رأينا سفناً تأتي من جهة الغرب،
دخانها عالٍ وأصواتها توحش القلب.
رأينا صاحب الحرث وثور الحرث، يرفعان رأسيهما
مرّة إلى ثقب في السماء
ومرّة إلى سفن تأتي من جهة الغرب.
رأينا أطفالاً يركضون على طول النهر،
ملابسهم تقطر بالدم،
وأيديهم تلوّح إلى شيء يرونه ولا نراه.
رأينا كاهن الملك يذبح قرابين الملك،
ورأينا الملك في عريشته عريان يضحك.
رأينا حمماً تسقط على السهل،
ورأينا الموت أبيض كصوف سحابة مرّت أيضاً من هنا!

ساحة المقهى

حين جلس الغريب في مقهى ساحة المدينة،
لم يلتفت إليه بائع الذرة المشويّة، ولا بائع الأقمشة المزركشة.
كانت نادلة المقهى تحلم، ليست بعيدة عن صبيّ الفرّان
والمجنّد العائد إلى قريته تحت سفح الجبل.

شاحذ السكاكين يصل لاهثاً
شجرةَ الزيتون التي سُمّيت على وليّ المدينة.
هو لم يعد يقدر على حمل أثقال قلبه
حسبه أن يرفع سبّابته إلى أعلى وتنهمر أمطار الأنين.

هنا بيت، وعمّال يرفعون القرميد على سقف البيت.
هنا سكير رأسه على الطاولة ويداه ممدودتان،
واحدة قرب نهد المرأة الناعسة، والأخرى في دلو ماء.

الحمّال يشتُم الريح والكلاب السائبة.
صيّاد السمك يسحب شبكته،
يسحب سماءً حيرانة وأرضين ترتجف.
كبير السجّانين في باحة التريّض،
ينخلُ الوقتَ وينخل حصى الضلالات.

الجموع

إلى أين تذهب هذه الجموع؟
من أين أتت هذه الجموع؟
الجموع فوق جسر الاستقامة حيث لا ظلّ ولا ظليل!
الوقت في حاشية الجموع أكل نصف البرية ولسانه صار أخرس.
من قتل هذه الجموع؟

الصيّادون الذي عادوا إلى القرية، وجدوا البيوت قد غرقت في النهر،
الأغاني تشقّقت والكلام له صدى طبل أجوف.
الليل خانته الذئاب.
القمر لم يعد يجلس فوق شجرة السدر.

حتى الطيور اختفت مع الحجارة التي سقطت من الجبل
صار لها عواء يشبه الشتائم واللعنات.

"من أين أتى هؤلاء الذين يرقصون تحت ضوئي؟
لماذا في قلب كلّ واحدٍ منهم ثمرة بلّوط؟
أهذه أغنياتهم أم أصداء همهمات العبيد من وراء الصحراء؟"
تساءل القمر، قبل أن تنحني الأرض للمالك الجديد.

المتطهّرون

تخرج النسوة من القبو المعتم، في أيديهن صُررٌ، خلفهنّ أطفال يلعقن أصابع حلوى.
يدخل التاجر بيته، على كتفه بطّيخة ناضجة، خلفه قطّة بيضاء تضلع.

المطلّون من نافذة النُزل، ينتظرون الشواء الساخن، ويضحكون.
الشرطي يقلّب الثوم، يفكّر كيف نسي أن يلمّع حذاءه.

السمك في السلة ملقي على جنوبه، عيونه مطفأة،
ما أقرب السماء للميت !

النازحون جوعى، حزانى، ألقت بهم الأرض إلى الهموم.
الأيدي الممدومة دوماً خفيفة
أما الخطوات المترددة حدّها أن تصل إلى حوصلة الغريق.

ساق الشحاذ وقلادة العروس، كلاهما في خزانة الملك.
على مهلٍ تأخذ الفلاحة الثوم والبصل إلى بئر في وسط الساحة.

أحمالٌ وأثقال

اجعل حساءك من عدسٍ يأتك صانعُ البيرة،
على رأسه قلنسوة القضاة وفي يده مسبحة شيخ ميت.
اجعلْ دلو السقّاء خروجك من همّ.
لا تقترب من كفّ عليها سمكتان،
ذلك همّ لا تقدر عليه.

حاملُ الفحم على رأسه،
كيف يحمل في يده خبزاً تأكل الطير منه؟!
كيف يضحك طائرٌ وحشيّ لنهار لم يعد أبيض؟!

هلمّ إلى مائدة الصائمين الحالمين،
خبز يابس، تين مجفّف، لحم مقدّد وثريد بحليب معز رائب.
هلمّ إلى غناء أرقّ من ندى الربيع، وأشفّ من آهة عاشقة.
رجال ونساء يخرجون من الأقبية، تتبعهم التقوى وخائنة الأنفس.
همّ فوق همّ!
الثعالب على الربوة، ينتظرون صفير قطار الليل،
الوليمة لن تبدأ قبل وصول القطار.
صحون الفقراء تمتلىء بالحكايات.
جُرَّ العربة الخشبيّة إلى حافة الحقل، انظر
كيف تدخل الشمس على جنب
كيف يستقيم الكلام في فم الرضيع!

الأسلاف

أسنّة الرماح عالية والكتاب مطويّ.

لم يغب أحد عن القسمة، حتى وبّار النخيل ذي العين البيضاء.

لا أحد يعرف من أشعل النار في الخمّارة،

ولا كيف سقط إزار الفقيه على ظهر الفتى الأبكم!

المسلحون حطّموا الباب، سرقوا قلائد النسوة،

سلخوا كلّ وشمٍ وجدوه على ساق أو خدّ أو جبين.

أسلافهم أطلّوا من وراء الأسوار، مثل طائرات مسيّرة

كانت الكتائب تحيط بهم من كلّ جانب

يبست ضروع نوقهم وغار ماؤهم

سُفن الحديد بدت على المدى كأنها حبّات عقيق منضود

وحده الملك يحمل سفينته فوق ظهره ويصرخ على الواقفين على الجسر.

"إن أسرعنا، سنعلّق كلّ رؤوس الخونة على الرماح قبل غروب الشمس." يقول كبير الحرس

هذا بحر بألف لجّة ولا ساحل!

الذين رفعوا الأعلام القديمة عالياً رحلوا مع ريح القبلي

الذين جاءوا مع المدِّ شقّوا قمصانهم ولوّحوا بالمشاعل

الذين بقوا في بيوتهم تهتّكت صورهم على الحيطان

وفي كهوف عيونهم تبيض الغربان.

هذا ساحل ليس فيه من الحياة إلا الموت!

حقل الجرجير

التاج ثقيل على ملك يمشي في الشارع،
البرنوس ثقيل على فقيه يحرث حقل جرجير.

سِنّ من حديد تُدوّر الغابة على صدر حجر،
بُرقع من هوىً يدوّر الفضيحة على وجوه الغانيات.

أخذوا الناقة من تحت الهودج،
أخذوا الفجيعة إلى الخيام الموحشة.
جميعهم يهيمون في صحراء عظيمة.

حامل الشموع يتبعه المغني وامرأة
على ظهرها رحى، تنثر على الزنابق نخالة القمح الذهبية.

مِن على السور يتبرّز السكّير على العالم،
أشجار السرول تُسقط أقماعها اليابسة فوق ضريح الوليّ.

سوف تأكل السمكات فطائر الخبّاز،
ويقفز الضفدع قفزته الأخير في بركة الماء.

في الجنينة، اندلق اللبن على عشبة الكليل،
من الحجرة العالية يتابع السيّد سرب طيور مهاجرة.

الثور يتبع حروف المحراث، يتبع حروف قلبه،
يتبع أغاني لحصّادين غطّاهم غبار الوقت.

الخنجر

أين يضع اللص الخنجر؟

في حقل البازلاء.

أين يضع القاتل الخنجر؟

في خاصرة النهر.

أين يضع الملك الخنجر؟

في يد الشرطي.

أين يضع الرضيع الخنجر؟

في صندوق الجدّة.

أين تضع العروس الخنجر؟

في قطفة نعناع.

الجندي

النسور تتبع الجندي العائد من الحرب، تنسلّ من جسده:
صيحات القتلى، عسل القرى البعيدة،
خُمار الليالي الموحشة، المليئة بالفجائع.

الجندي العائد من الحرب:
أعطى لمختار القرية خودة مثقوبة،
أعطى للعشيقة صفرة الغروب
أعطى إلى الخبازة صفّارة الإسعاف
أعطى لأخيه الأكبر حدوة الحصان
أعطى إلى جاره رائحة البارود
أعطى لمحصل الضرائب حقيبة الموتى
أعطى لنفسه رصاصة واحدة في القلب.

ارتجال عازف الترمبيت

نفضْتَ يديكَ فتناثر في الهواء غبار

ليستْ بشارة ما رأيتَ على كفّيكَ!

لقد رأيتَ كلّ من سوف ينزل من صلبكَ

ضحكتَ حين لمحتهم يرفعون الأشرعة

وضحكت حين سمعت أغانيهم

وضحكت حين ترنّحوا في الفيافي سكارى

وضحكت حين ارتعشوا في خلواتهم

وضحكت حين نزلوا من الجبل صامتين

لكنّك بكيتَ مرّة واحدة

نعم، مرّة واحدة فقط

حين نفضْتَ يديك فتناثر في الهواء غبار.

خطوة، خطوة ثانية وخطوة أخرى

الكون شاسعٌ في هذه الشرفة

خطوة، خطوة ثانية وخطوة أخرى

هل تسمع؟

انصتْ!

الكون يتحرّك!

أيّها الحجر الذي يكتب ما سيكون

مدّ رجليك على عشب ما قبل التاريخ

لا راحة لك

قبل أن يتقدّم الليلُ النهارَ

قبل أن يجري بحر على ساحل

قبل أن يصعد في الهواء طائر

قبل أن ينبت في التراب كلام

قبل أن يسكر رجل وامرأة تحت عريشة عنب ريّان

قبل ساعة يُنفخ فيها البوق وتقع الزلزلة.

الشِعر هذا العصيّ

الشِعر هذا العصيّ الخفيّ

أيكفرُ بأسمائه أم يركب الفُلك مع الراحلين

أيّ آية مُحيتْ على قمر؟

الأرض بساط والسماء حلقة في أنف ثور

أيّ آية مُحيتْ على قمر؟

غمام خفيف عالق بنهر صريخ

أيّ آية مُحيتْ على قمر؟

حين تلوح من بعيد سلالم، تعرف أنّك وصلت

أيّ آية مُحيتْ على قمر؟

قبضة من هنا وقبضة من هناك

ثمُ يسكن ماؤه وتعطن ريحه

وينطق بألف لسان ولسان

نارٌ تدخل من فيّه وتخرج من دبره

نارٌ تدخل من دبره وتخرج من فيّه

كالطبل يقرع من بعيد

كالطبل يقرع من قريب

له في كلّ خطوة مفازة

وفي موضع كلّ قدم قرية

ما أثقل حمول الكائنات

ينسلّون على يمينك إلى سهوب مدّ البصر

ينسلّون على شمالك إلى صحراء مدّ البصر

بيديك العظيمتين تقشّرهم من جلدك

وأنت تركض بين مفازة ومفازة

تركض بين شقاء وشقاء

خيلك تسبقك إليهم وهم يصرخون

في الوديان والصحارى، في المدن والقرى

أبانا الراكض أبدا، لِمَ فعلت بنا هذا!

لأن ثمرتك بين يديك

صارت كلّ نويرة تسقطُ، شجرةً

وصار كلّ قفر تمرُّ به، غابة

يا صاحب الثمرة

حسبكَ أراضين وسموات

غرابٌ وسلحفاة وشمسٌ

خيطٌ رقيقٌ معلّق في الوقت

بيداء تتثاءب في كسل.

صعبٌ وصف أصوات الأشياء

تصادم ذرّات الغبار في الهواء

تساقط أنفاس السقف على الأريكة

طرقعة أصابع العجوز يشرب شاي ما بعد الظهيرة

كيف لا صوت ليد ألوّح بها إلى الذي أنا في المرآة؟!

يدي القريبة الغريبة!

وقوف على بحيرة

هل وقفتَ على بحيرة يوماً؟

لا أقف على ماءٍ سجين

هل انصتَّ إلى صخرةٍ يوماً؟

لقد اتقنتُ من كلامها سبعة أحرف

هل سمعتَ اسمك ينادى به في الأرض؟

لقد خلعتُ كلّ أسمائي، فأيّها تعني؟

هل ركضتَ في جدول ماء بين جبلين؟

كلّها، تحمل جداولها على أكتافها

هل أتيتَ فرداً؟

بل أقلّ من ذلك

هل تعلم مَن أنا؟

أعلمُ مَن أنا.

إلي أين ذهبت الأجساد

إلى أين ذهبت الأجساد المهمومة؟
إلى أين أخذت شهواتها تعاويذُ الغابة؟

المرآة الكافرة السكرانة
أمام ريح تطوّح بأوراق الأشجار
أمام كراهية تفوح برائحة العفن
أمام صفير رمال في الصحارى
أمام ضحكات غادرت الوجوه قبل قليل
أمام بيوت تنكمش على نفسها آخر الليل

المرايا ثقوبٌ سوداء، وصفيرُ كونٍ!

سيرة ذاتية مختصرة

في العام السادس عشرة

أردت أن أكون صاحب نظرية فلسفية تفسّر كلّ مشكلات الكون

في العام السابع عشرة

أردتُ أن أكون شاعراً يحمل مفاتيح الكون العظيم

في العام الثامن عشرة

أردتُ أن أكون رسّاماً، أكثر شفافية من بول كلي

في العام التاسع عشرة

رفعتُ قبضتي في وجه الرأسمالية

في العشرين

أردت أن أعيش في الصحراء، أسمع سترافنسكي وشوبان

ثمّ صار للوقت في كلّ طريق شجرة وفي كلّ منعطف بحر وحكاية

ثمّ صارت الخطوات أقصر والأوراق تصفرّ وتذوي في الريح

الآن، أريد فقط، أن يمرّ هذا الشتاء الطويل!

أسلاف

أنا من قوم إذا خرج أحدهم من بيته، لم يعد يعرف بيته.

أنا من قومٍ، حيواتهم معلّقة بخيط كلام.

أنا من قوم نبيّهم يأكل من إبهامه.

أنا من قوم لسانهم حجر، وغدهم حجر.

قمرهم يدور على وجهين:

وجه يفتح نافذة على نجم عظيم

و وجه لم يره أحدٌ ولا نزل عليه من السماء ماء أو شهاب.

أنا من قومٍ، أحلامهم سرابٌ بقيْعة.

أنا من قومٍ، ينوحون كما تنوح رمال الصحارى.

أنا من قومٍ، نسوا كيف تكون الشجرة بلاد، ولماذا تكون الصخرة مقبرة.

أنا من قومٍ، سلاحهم دُعاء، خبزهم كراهية، وضحكهم بكاء.

أنا من قوم يقرأون النجوم، يخطّون على التراب حروفاً ومربّعات ومثلثات

أنا من قوم يكرهون الحجر،

يضربونه بالقواديم ويذرون غباره في الهواء،

ولا يدخلون إلى بيت فيه حجر.

حين يشتدّ بأحدهم الكرب،

يذهب إلى غابة أو حرش، يغتسل وحيداً صامتاً.

في الليل، ساعة قبل الفجر، يرمي بحجر صدر الليل.

أنا من قومٍ

كبيرهم فقط من يضع الدائرة حيث يشاء.

الملك الشاعر، الملك الضلّيل

أنا الملك الضلّيل

غمستُ يدي في الطين

قبضتُ قبضة منه، ضممتها إلى صدري

نفختُ فيها

وصنعتُ منها بُدّاً ووثناً

■

أخذتُ فأساً

قطعتُ به صخرة

صنعتُ منها ما يشبه الطير

مايشبهني

فتحت له صدري سماءً يصّعد فيها

ونحتّ له من الجبل غابة يسكن فيها

لكنّه رمى وجهي وراءه

وحلّق ناحية الغرب حتى اختفى

■

ليلي صار قصيرًا كسبّابة رضيع

أين إذن أضع حلمي ؟!

■

نهاري؟

لا نهار لي

منذ أن خوّضت في البحار، منذ أن صرتُ سارق نار في المدائن والفيافي

■

بيتي حيث تتقافز السحالي

عتباتي حدائق غنّاء

ضعوا نذوركم فيها، تمطر عليكم السماء مدرارا

■

هل رأيتم رجلا بحديدة في يده

تقول ما لا يقوله إنسيّ ولا جان؟!

■

أتيتكم بالألوان كلّها

بعضها مولود في الماء

بعضها في النار

بعضها يتشقّق كما يتشقّق الطين

بعضها قُدّ من صخر

بعضها غناء شجيّ في قلوب الأشجار

■

أتيتكم بألواح فيها مواقيت زرعكم وحوت بحركم

فيها:

كيف تفرّق الطيور بين الفصول

كيف ترحل القبائل وراء خيط رقيق

كشعرة في ظهر يعسوب

■

جمعتُ السوس من فولكم وشعيركم وقمحكم

طويتُ لكم الفيافي على ظهر ناقة

كيف إذن ترحلون إلى أرض ليس فيها غير السدر؟!

■

أخذتكم إلى أوّل الأمر

إلى بدء البدء، إلى نقطة:

قلبها في حلق طائر،

في عين صقر

في جديلة صبيّة

في زفرة شمس موجوعة،

في يدٍ ممدودة أبداً إلى قمرٍ وضّاء

■

أخذتكم إلى جرفٍ حافّته: رجفة نشّاب وشهوة تيس

أخذتكم إلى ضفتي نهرٍ: هذا قال وهذا يقول، هذا يُذبح وهذا يَذبح

أيّ عينٍ أبصرُ بها الفجيعة؟

■

خَوفَ عينٍ تبصركم
فقأتم عين فحلكم
مَن يأخذ نياقه لترتع سهلاً مجدباً
ورملاً يتلظّى؟!

■

أنا الملك الضلّيل
قلبي جفنة جمرٍ
وهذا جناحي المكسور

الزرقة في كفّ طفلة

زرقة السماء في كفّ طفلة

زرقة البحر في كفّ طفلة أُخرى

البطاطا تصغي عميقاً

إلى الأرض وإلى القنافذ تعبرُ الحقل تترنّح

بين الأشجار سكرانة تترقّب الزلزلة

مَن يفتح باب الريح في بريّة قاحلة؟

مَن يهدّئ لوعة الأعشاب من لسعات البرد؟

السؤال المعلّق بين وقت ووقت،

فسائلُ نخلة خرساء

"ستأتي بالأسماك الأغنيةُ، ستقلّبها على ظهورها

تُعيدُ أحلامَها إلى أرخبيل وحشي"، يقول الصيّاد

تعال نحصي أحزان البحر

تعال نحصي أحزان البحر

كيف نفعل ذلك؟

نجمع الرياح من قبضتيه

نسوّي تجعيداته الفضّية

ندلق دلو الضحكات المخفي في قاربه

نفتّش عن الشموس في قلبه

نتلصّص عليه حين يتقَيّلُ على الرمل

هل يرتجف البحر أم حسبه أصداء هديره؟

نسأل عيون الأسماك في الأراضي البعيدة

نسأل الحصى المستدير اللمّاع

نسأل الأعشاب في صلواتها

هل يرتجف البحر أم حسبه...

العشب بريد الأرض

العشبُ بريدُ الأرض، خادمُ عَسَسها وجيشها الذي لا ينام
اتبعْ أنفاسه وانظرْ كيف يتناثر الكلام في أيدي النسوة العاملات الفقيرات
كيف تلتصق الأجسادُ بالأجساد ويقرعُ العبيدُ طبل الأحزان
آنَ يقترب القارب من الشاطئ، يرفع دبيبُ الأرض راياتهم على أعناق النخيل
آنَ تصدح أغاني الطائر في السهول والبوادي، يكون نهارٌ، ويكون ليلٌ:
في حقل الزعفران في طاحونة الشعير، خلف الجبل، خلف بيت الكاهنة:
الجائعون الخائفون، واقفون عند حافّة نار تستعرْ، عند خدّ الوادي العريض عند مناحة الكائنات.
بيوت الزاهدات الحزينات، تُشير دائمًا إلى خديعة أو فجيعة.
حصاةٌ باردةٌ تغوص في الماء، عريانة، تدخل صدف الحيرة تدخل مرجان النسيان.
هذه غبطة الطريق، هذا أوّل القافلة، خذْ سريرك معك، الدنيا كلّها نوم.

قفْ أو تقدّمْ، أصغِ أو تكلّمْ بألف لسان. انهضْ مع الأطيار، غبْ غيبة الضفدع أو غيبة الحلزون .
لكَ كلّ شيء ولا شيء. هذه ناركَ وهذا ختم الحجر.

مَن وضع الحرب في خندق

في غرفتي المطلّة على بحر صبراتة، يأتي النوم، ويأتي المطر، يتبعه أجناد البرق وأجناد الرعد.
يقفون عند عتبته صفّا صفّاً. أسمعه ينحني على الأرض، يربّتُ عليها
ثمّ، يهطل عبقُ الترابِ العطشان، يحرق لهفة الروح.
الطفلُ الذي كنتُه، لماّ يزل يحمل في قلبه قفزة الماء في القطرة
الطفلُ الذي كنتُه، لما يزل يستعيد على وسادته حلمه المبلول
لن يعرف أحدٌ، مَن وضع الحرب في خندق، مَن كسرَ جناحي البومة الشهباء
لن يعرف أحدٌ، رعشات ساقيِّ الرجل في طريقه إلى المحرقة
كان على الميّت أنْ يقرأ السماء جيّداً، أنْ لا يشتهي مكيدة المِحبرة
رحلوا تاركين وراءهم دخان نيرانهم بين الجبال والسهول

كلّ يحمل على رأسه شجرة قلبه أو خِفّة نعشه
رحل الطاغية، غسلوا دمه علّقوا على خشبة عالية رأسه.

حرائق في كلّ بيت وكلّ طريق

الغزاة القادمون من البحر، ينتظرون إشارة قائد مُلهمٍ أو لعنة نبيّ
امتلأ البحر بقواربهم، عبيدهم، جندهم، والكثير من نبيذهم
سيّان ترك صبيّ على الشطّ وترك مجداف تحت شجرة سدر
انزلوا كثبان الساحل، حاملين على ظهوركم أسلحتكم وماءكم وتمركم
لا تتردّدوا في قنص فريسة، أو قطف يأس الناس من عتبات الأبواب
إنْ تعبتمْ وجّهوا أبصاركم صوب نجمٍ وهّاج، غناؤه سلوى لكم
هنا سقيفة الموتى هنا سقيفة اللصوص والسكارى
هنا كائنات الغابة، هنا المرابون والسعاة والمحامون المرتشون
حرائق في كلّ بيت وكلّ طريق!

لقد خبا فتيل السراج .تقدّم يا فتى، اشرب على جثّتك نخب الانتصار
ليتَ لي يدين أكفكف بهما دمع النازحين وحشرجة الميتين
ليتَ لي قدمين أمشي بهما إلى بيداء، أغرس فيها الصنوبر والخرّوب
ليتَ لي فرساً صاحبة أمرها، تصهل للشهوة وتنتشي لأغاني الهاربين.

الحياة في خفقة جناح

الصقر يتطلّع إلى السماء مرّة، وإلى بتلات الزهرة مرّة

الحياة في خفقة جناح، والغياب في تلويحة يد فلّاحة عجوز.

بين الأشجار تتردّد أصداء الأجراس، بين الأشجان الخالدة يبني الطائر عشّه .

إلى القمر الكبير ترنو بعينها الساقية.

على خشب الشرفة توقّف الزمان، تصدّع جدار الدهشة

على مهلٍ اِنداح الليل، حوّمتْ البوم في أركان الأرض تقطف الأحلام الشاردة

لو تحمل في قبضة يدك يا رج زفرة الخائف الجائع

اطرحها على الأرض الخانعة، ولا تدخل في المصيدة الحجرية!

اقتربْ من الجبل، ماذا ترى؟

أرى جداول ماءٍ تسيل وثعالب تقفز، ونساء يتلصّصنَ على الريح.

هاتِ ما عندك، تقدّم اقتحم النار الحامية

لقد بدّلتُ جلدي ألف مرّة، وسرقتُ من الشجرة قصيدتها العظيمة.

بيوت قبائل

البيوت قبائل، مثل البشر تماماً،
تُحرّكها عواطف غامضة،
تشتعل فيها النيران، تنتشي بالبلل.
لا تدخل حروباً ولا تتلصّص على أحدن
جُلّ ما تفعله في حيواتها، أنْ ترسم غيومًا في السماء
تفتحَ للشمس وللشجر قلوبها.

البيوت، رمّانٌ ينثر حبوبه الحمراء في الفضاء،
علّ ذات يوم تمتدّ إليها يدُ إله!

في كلّ غرفة

في كلّ غرفةٍ بقعةُ شمس وسريرُ ليل، وحدها نافذة المطبخ تفهم لغة الحنّاء.
أحذيةُ الجلد العاليةُ والصنادلُ تقعد على العتبة، يأخذها الحنين إلى طرقاتٍ بعيدةٍ.

تكاد من شغفها تشمُّ عَرق نساءٍ جافلاتٍ خائفات.

كيف لها، آن تمشطُ الطفلةُ شعرها، أنْ تغمضَ عينيها على جمال أخّاذ؟
كيف لها، آنَ يملأ المكانَ رنينُ خلخال وشهقةُ حال، أنْ تلتفت إلى يعاسيب تحوّم ورمّانٍ يهتزّ؟!

الغابة لا تقف

عندما يكون بيتٌ لكلِّ فصلٍ،
فصلٌ لكلِّ بيتٍ،
تجلس الغابة – الغابة لا تقف–
على الطريق المؤدّية إلى القرية،
تُرسل طيورَها، تَسترق السمعَ،
تبعث روائح أوراقها إلى طاحونة القرية:
الحارّةَ للقمح،
الباردةَ للقصب،
الحامضةَ للحلبة.

أمّا ما تبقّى من الروائح،
يجمعها الطحّان في قرطاسٍ،
يعلّقه على مئذنة الجامع.

حكايات

الحكاياتُ التي تدخل البيوت، ليست الحكايات التي تخرج منها.
حكاياتٌ بلون الجعة، حين تقترب منها الشمس،
بلون القرفة، حين تجلس قريباً من الليل.

للحكايات أفواهٌ ولغات.
لكلِّ فمٍ قفلٌ مفتاحُه على صدر عذراء
لكلِّ لغةٍ حِبرٌ يخرج من بئر النسيان

النسيانُ، خازنُ الحكايات.
لا جسدَ له، لكنّه ينبت كما تنبت سنابلُ القمح والشعير.
يحبُّ القمرَ في تمامه،
يحبُّ من الأغاني، ما يولد في المراعي والسهول

إنْ شققتَ صدره، يهبُّ نسيمٌ له
من صفات البحر، السلاسة
من صفات النار، الشوق
من صفات الحديقة، الغبطة
ومن صفات الرمال، حنين الذئاب.

استدارة

استدارة أيِّ شيءٍ، فعل خطيئة. كأنْ تقولَ: استدارت القصيدة، على نفسها.

السهم، يستدير على ضحيته.

عيدان القصب، تستدير على الماء.

نخل القرية، يستدير على النسيان.

فراشات كثيرة، تستدير على نهار وليلتين.

الفتارين المضيئة، تستدير على شغف الشوارع.

ضحكات طفل وطفلة، تستدير على وجدٍ شفيفٍ.

فراغُ كونٍ – أو هكذا نراه – يستدير على فجيعة عظيمة.

فأيّ استدارة يكون قلبك يا لاعب النرد؟

خرّوب

كذلك البيوتُ الوحيدةُ، تخاف

تحضن نفسها، واقفةً، تراقب ندف الثلج

تمدّ أعناقها، إلى الفضاء الرمادي

تجمع ما تفتّتَ، من الصمت.

في صندوق خشبي، تضع لوعاتها،

أمّا خيباتها، تتركها تركض في الشارع، عريانة

-هكذا تركض الخيبات.-

كذلك البيوت الوحيدة، لا تنام

تغزل وحشتها، خيوطاً طويلةً،

تعلّقها، على أغصان الشجرة القريبة، قُرونَ خَرّوب.

ظِلّ البيت

ظِلٌّ البيت، الذي بنيته في صبراتة
شاسعٌ، كابتسامة اليوم الأوّل من رمضان
حوافّه، ناعمةٌ لا التواء فيها
صدره، باردٌ حين تأخذ الشمس في العودة إلى بيتها وراء مقهى الجرف
ظِلٌّ، تتفتّح أزهاره السرّية في الليل. يذوي، حين تتعالى أصوات الغرقى
يرتجُّ حزناً، كغابة تُركت للنسيان
يلعق الموج، أطرافه ويجمع بيديه الخائفتين
ما يركض، على الرمل من سلطعونات.

ظِلٌّ يتيمٌ أسمّيه الطوفان.

الاستماع إلى شارلز مينغس صباحاً

كائنات تلوّح بأيديها من قلب الحجر
خفيفاً تلمسُ السنونوةُ، بومةَ الحقول الشهباء الواقفة قبالة الشمس
سربُ طيور الحجل، اختفى من السماء
نسوة في جلابيب سود، تغوص أقدامهن في رمل الشاطئ
بعيدة مدن الشمال، هشّة أحلام الصحراء.

كانت استلقاءة القطّ على الشاطئ مِراناً على الموت.

شجرات التين تُخرج آخر ثمرات هذا العام.

هبت ريح القبلي، مالت النخلات
البحر ليس بعيداً!

باب بدقّاقة رأس غزال

لن أبوحَ لكمْ بما أُبصرُ
سأجعلُ الشكّ يصعد الجبل،
الأصواتَ تهيم في الصحراء.

كان نائماً على ظهره لا يفعل شيئاً
كانت نائمة على ظهرها لا تفعل شيئاً.

سأحكي عن سارق السنابل، الذي بنى السور، وأطلقَ الفريسة
عن الذي قُبض عليه في حمّام النساء، الماء تحت قدميه، والصباح على يمينه
عن جسدٍ غاب في النسيان،
عن سريرٍ باتجاه الجنوب.

أمنية

فِي حِجرها حطّ، الطائرُ، الخفيفُ، السرّاقُ، الثرثارُ، المتردّدُ
كي يشرب من كأسها، يدفع رشوةً، لثلاث سنبلات.

كلّ يومٍ، يأخذ إبرته ورمحه
بالإبرة يخيط دهشة القميص،
بالرمح يقطف أغنيات الليل.

مَنْ يشتهي حيرته
ليته أبقى على كتاب ألف ليلة وليلة مطويّاً!

حلوى الملك

أجلسُ تحت شجرة التين

أقضمُ حلوى الملك

أشمّ ريح المسك

أرى العدم وجوداً وطمأنينة.

مُدَّ يدكَ إلى حلوى الملك

واجلسْ معي تحت شجرة التين!

الفراشاتُ أشجارٌ تحت سماء صافية

السحالي أيامٌ تجري خائفة عجلى.

اختر نارك:

نار حرق

أو

نار سرور.

الماء والهواء والتراب، والنار،

كلاب تهزّ ذيولها للضيوف.

لا تضرب حديد الظلم بالحجر فإنه يلد.

إسطبل

لا تظنّ أنّ الحصان الذي يتباهى بالسرج، خارج الإسطبل!

الريح الشرقية غبار يابس موحش مرّ!

لها على الماء خيل هائجة،

تذوب في الليل كما يذوب الخيط في القنديل.

حسبُ الجثامين في الساحة، أنّها بلا أسماء

حسبُ نبات الرتم أنه يزهر مرّة ومرّة.

أغنيات في طريقها إلى بيتي

مسافة ذراع، تبعد الشجرة عن السمكة.

سِربُ نملٍ حاشية البحر، سِربُ سنونوات حاشية الغبار.

باردٌ سور البيت، لا طرق على الباب، لا وقع أقدام.

أتشمّمُ أوراق النعناع؛ تفيض الطفولة في صدري.

أتبع بإصبعي درب السحالي؛ خمسون عقدة في الحبل.

يدُ الجبل ثقيلة على الرمل، يدُ الشجن ثقيلة على الروح.

خِفّةُ الخلاعة، قميص الكتان الأزرق يهتزّ على الحبل.

الصخرة قبالة بحر صبراتة، تختبئ في الظلال وتسمع الأغاني !

كون مشغول ببعضه

البستان مشغول بالقمر

القمر مشغول بالمغنّي

المغنّي مشغول بالحبيبة

الحبيبة مشغولة بالجدول

الجدول مشغول بالسمكة

السمكة تسبح في بحر كبير.

هذا الحديث لم أبح به للنخلة، ولا لحامل الماء

هذا الحزن سقط من جناحي طائر بين الأرض والسماء.

حقل فول

سقفُ كلُّ بيتٍ حقلُ فولٍ

إنْ رأيتَ فراشاتٍ في فناء بيت،

تلك ضحكات أصحابه

إنْ رأيتَ شقوقاً على الحيطان،

تلك دموعهم

إنْ رأيتَ أوراقاً صفراء حمراء على عتبة البيت،

تلك أرواح الذين سكنوه

إنْ لم ترَ شيئاً في فناءٍ أو على حائطٍ،

اعلمْ أنّ شوقَ النهر فاض!

جرح عميق في السماء

من أين جاءت هذه الحُمرة؟

من جُرحٍ عميقٍ في السماء

أو

من أرجل السلطعونات الراكضةِ على الرمل

أو

من الأحراش الكئيبة على الجبل

أو

من ساقية غلبتها وشوشاتُ العاشقين

أو

من حنجرة المغني السكران

أو

من هذه البيداء الوحشيّة

أو

من يدي

أو

من يدِكِ

أو

من إلهٍ يتنصّت على الكائنات!

الخريف حبيب الرمّان

لأن الخريف دائماً سكران،
هكذا تأخذ شجرة الرمّان أنفاسها!

شجرة التين في فناء بيتي،
أخذتُ عودها من شجرة غرسها جدّي

جدّي الذي مات وهو يقول :
للشاي روح فلا تشعلوا فيه النار إلا بقدر،
ولا تقتربوا منه إلا على طهارة
الشاي طريق من طرق الجنة

قال لي أبي ونحن نجلس تحت شجرة رمّان :
لم يكن لدينا أوراق تبغ أو كاغد نضع فيها التمباك
لكن كان لدينا الكثير من الطين

للطين رائحة شبيهة برائحة الحريّة
هل تعلم ما رائحة الحرّية؟!

حديث كاليماخوس القوريناني ونحن نعبر حقل الصبّار ضحىً

فضوحاتُ اللسان في الليل، غير فضوحات اللسان في النهار
كذلك فضوحاتُ القدم واليد والعين والقلب.
ليس كلُّ فضوحٍ يوصلُ إلى شارعٍ أو سقيفة
ليس كلُّ فضوحٍ عتمة.
فضوحُ الوردة عطرُها
فضوحُ البريد ضحضاحٌ شاسعٌ
فضوحُ الظهيرة ظِلٌّ مكسور.

■

لِيَكُنْ عَلَمُكَ على جبل فلا تضلّ
ليكن عَلَمُك على شجرة فلا تكمدْ
ليكن عَلمك على منارة فلا ترقد على الرمل ميتاً
ليكن عَلَمُكَ كرسيّاً تتلو عليه تعاويذ الفراق.

■

هاتِ القوس مشدوداً

هاتِ الفرَس نافرةً

هاتِ المرأة فرَحاً

هاتِ الجرح ناتئاً

هاتِ الليل كظيماً

هاتِ القلب على ظهر خنفساء.

■

لك أن تقطعَ الحنين قِطعاً قِطعاً

ولك أن تدسّه بين جنبيك فلا يراك أحدٌ إلّا قال هذا شاعر ضِلّيل

لك أن تقطع النهر قِطعاً قِطعاً

ولك أن تنثره على البرّيّة، فلا يراك أحدٌ إلّا قال هذا سقّاؤهم الذي جُنّ.

■

هل تَرى ذلك الحبل المعلّق في السماء؟

هل ترى ذلك النهر الجاري بين الحقول؟

هل ترى ذلك البيت على الجبل؟

هل ترى تلك الأترجّة على المائدة؟

لا تبرح مكانك وأنت بين ليلين

لا تبرح مكانك وأنت بين أمرين

لا تبرح مكانك وأنت لا أنت أنت.

سيأخذك الكلام إلى قومٍ يعصرون خمراً

انظرْ، كيف يُهمهمون في الأفجار

انظر، كيف إذا غربتْ شمسُهم، رفعوا أصواتهم بالغناء

لا تتوقّف على طريق قريتهم.

امضِ ولا تلتفت وراءك.

■

نحن قومٌ نلعن حيواتنا لشُحّ مائها، وشحوب ترابها، ويباس سمائها

نحن قومٌ نستلُّ اللحن من قلوب الأشجار ومن أخفاف الإبل

نحن قومٌ تحفظ قلوبُنا أنّات التلال والأجراف الشاهقة

نحن قومٌ أبصارُنا مشدودة بخيطٍ يتدلّى من سماء قريبة

نحن قومٌ نُسمّي أولادنا بأسماء طيورنا،

ونسمّي أحجارنا بأسماء أصنامنا.

■

أَحُزنٌ على لسانك أم فرحٌ؟

نبْرةٌ على راحلة، هكذا يتقطّع صوت الشاعر.

آخذُ شجرة سِدر إلى بحر صبراتة صباحاً

أفكّرُ في كتابة قصيدة، عن زوارق الصيّادين في البحر، لا يُرى في العتمة الكثيفة إلا أنوارها . عن تلك البقع البرّاقة، تصطفّ في خطّ أفقيّ واحدٍ، وعن كيف تهتزّ، مثل حبّات درّاق أصفر في هاجرة . أهكذا يكون شكل الموت للأسماك، أم هذا تابوت العتمة الكثيفة يصعد بها إلى ....؟

أفكّرُ أيضا، كيف تختلف موسيقى الرمل، عن موسيقى البستان !
هل، في وقع سنابك الخيل، تركض، صاعدة التلّ؟
هل، في أجنحة طيور كثيرة، تلمسُ ريش بعضها، لمساً خفيفاً؟
أو لعلّه، في ضربات قطرات الماء، للحوض، تتبعها،
أنفاسٌ هشّةٌ، كراتُ عرَقٍ، تتحرّك، خفيّة، ثقيلة؟

ليت لي شراهة الرياح، كنتُ عرفت!

تمهّل قليلاً يا رجل

تمهّل قليلاً يا رجل ! اطرحْ عن قدميك إيقاع الجندب.

آن تصل قدم الجبل، اجمعْ، ما تستطيع من حطب طلحٍ وسدرٍ.

هنا، الليل طويلٌ، وصيحات الوحش حزينة!

نتوء صخري، عليه تتكسّر، موجات البحر

مَرّة، كأنّه قارب سكران،

ومَرّة، كأنه غريقٌ يخبط بيديه وجه الماء .

من شرفتي، أرى الأفق خطّا مستقيماً، كلّما اقتربتُ ابتعد.

لم تأتِ اليوم، بومةُ الحقول الشهباء، كذلك، غاب الهدهد .

حسبها، نسماتٌ باردة، والاستماع إلى علي الرياحي، يغنّي :العالم يضحك!

قبالة الشمس

قبالة الشمس، تجلس جارتي، بومةُ الحقول الشهباء، على سورها.

قبالة بحر صبراتة، أجلس، أنا، صيّاد الكلمات،

بيني وبينها، شجيرات عكاز سيدي موسى،

كيزانُ ورداتها الصفراء، تقطر عسلا.

أمدّ عنقي قليلاً، لأرى وقفتها الشامخة!

■

لم أرَ الأسماك الصغيرة، تسبح في البحر،

رأيت دوائر ضوء تتّسع وتضيق.

كان النورس الرمادي، يسفّ، فوق خطّ الماء،

وأنا أركض، أتبع أثر السلطعون بين شقف البحر.

من إذاً، يقبض على صوت القصيدة؟

■

الطائرُ الأسود، الذي لمحته، يغادر الاحتفال بالذكرى السبعين، للإنزال الكبير في النورماندي، هل هو، ذات الطائر، الذي لمحته، في أكاكوس، الصحراء الكبرى؟

هل تعلم

هل تعلم، ما الكثيب؟

رملٌ متراكم كالأحزان

جسدٌ عارٍ، غارقٌ في الشهوات

كلماتُ ريح رقراقة في الفلوات

صلواتٌ تَطوي في وحشتها صلوات

سرابٌ تتبعه القافلة التائهة و....

مهٍ! وأنا الذي كنتُ، أعلم، ما الكثيب!

لو لم تكن الشجرة

لو لم تكن الشجرة   تحدّث نفسها   ما كانت قادرة على:

مدّ أصابعها إلى قلب الأرض

خلق يخضور الكون،كلّ نهار

الإزهار، الإثمار، وإسقاط الأوراق.

لو لم تكن تحدّث نفسها

ما كان للشجرة، أن تكون الشجرة!

البحر هذا الصباح

البحر صامت هذا الصباح، لقد مدّ جسده شمالاً .
حطّ الزرزور على شجرة التين، انثنت ورقة التين قليلاً.

السلطعونات من حُفرها، تتلصّص على الجالسين على الرمل.

ها قد سكن البحرُ، رجع القاربُ الذي لا أستطيع رؤية وجه صاحبه.
طيور الخطّيف تحلّق قريباً من هيكل ماركوس أوريليوس،
أنا في شرفتي، أُنصتُ إلى زياد غرسة يحاول إخفاء بحّته الناعمة.

ثمّ ماذا؟
لقد رحلت النوارس،
صارت صخرةُ الصيادين عاريةً موحشة!

وهي تذهب غرباً

وهي تذهب غرباً، تضع الشمس يدها، على الشجيرات تحت السور.
حياة عميقة!

لا شيء يمضي إلى غياب، بل إلى حضور آخر
طرفا القوس يتّجهان إلى الداخل، كيْ لا يهرب الضوءُ ويتجاوز الظلّ حدّ الكلام.

يمكن للقصيدة أن تكون، غناء جنادب واقفة على التل
يمكن لها أن تكون، زورقاً يمرُّ به عابرٌ غريب،
أو، جبلاً يرفع على أكتافه سماءً بأثقالها
لكنّها أبداً، شهقة، تذوب كقطعة سُكّر.

يا شاعر

يا شاعر، نفخة النار في المصباح واحدة .فقط الشفاه ما يتبدّل ورعشة الأيدي .

هاتِ القصيدة فكّ عنها القيد .أخرجها من حوض الألم .افتح لها شرفة البيت.

ستجد أنّ، القصيدة بلدان وقرى .

جاز بلا ساكسفون، كعود قرفة ملقى في الصحراء.

تدخل الإوزة الماء، تمدّ عنقها، تحني رأسها إلى أسفل، تمسّ الماء بصدرها، حتى تكاد تسمع خفق قلبها، ثم تلتفت يميناً وشمالاً وتمضي قُدماً.

هذا ما يفعل الشاعرُ!

شوبان

ها أنذا أعودُ إلى مقطوعات شوبان على البيانو، عزف آرثر روبنشتاين، أربعينيات القرن الماضي .مثل كلّ مرةٍ أجِدُني واقفاً أمام سلّمٍ عالٍ، لا مساند له، تحتي فجّ عميقٌ .لا أقدرُ على التقدّم، ولا أقدرُ على العودة، إلى الوراء .أُحسُّ، بدبيبٍ كدبيب المارتيني، يسري ما بين وقتٍ غابر وآخرَ جديد!

أعيدوا إليّ، اليعاسيب التي رحلتْ. أعيدوا إليّ، تلويحةَ المطمئنّ. أعيدوا إليّ، وقتا هشاً، كوقت الأنبياء. ما كنتم تفعلون، لو أخذتُ نتفة من صباحكم، وكحّلتُ بها بحركم؟
ما كنتم تفعلون، لو أخذت ما تساقط من صهيل خيلكم، وعلّقتها أوسمة، على صدور المحاربين القتلى؟ ما كنتم تفعلون، لو أخذتُ دفء نسيانكم، وضعتُه قُبلةً طويلة، على شفاه الحكايات؟
ما كنتم تفعلون، لو أخذتُ غدكم، أخفيتُه في بطن حوت، كي تصنعوا غداً، يليق بكم؟

قال لي الليل :

إن تصدّع حجر، تلك شهقة الخائف

إن رأيتَ العشب يهتزّ في السهل، تلك رجفة الجوع

إن سمعت دفوف النار، ذلك حفيف الشجن

هنا القصيدة موحشة

هنا البراري امتلأت بالمرتزقة

والمدنُ أطلقت صرختها في بوق القيامة

امضِ إلى حيث شئتَ

لن تجد بيتك في الطرقات!

سبعة سلالم

سبعة سلالم إلى حيث يقف الطائر أحمر–صدير، سبع أغنيات لدخول المساء.
بقايا مطر البارحة، على الأعشاب البرّية الصغيرة، التي أخرجت أزهارها الرهيفة البنفسجية، في الفناء الخلفي. الريح شمالية شرقية، خفيفة .لا أرغب في مشاهدة برامج التليفزيون، ولا سماع الراديو .
سأكتفي بجرعات من شاي بئر التنّين .أقلّبُ الكلمات، وأحدّق في حيرتها تسيل بين أصابعي، خضراء، صفراء، بيضاء، زرقاء. أقفل النافذة المطلّة على البحر، لا نوارس تحوّم في الفضاء اليوم.
فقط، بقايا مطر البارحة على الأعشاب البرّية الصغيرة!

هناك دائماً طفل يقود التائهين إلى سَمنو

السحب في سماء صبراتة ممزّقة، كأن نبالاً خفيّة اخترقت جسدها، تهرب سريعاً إلى بحر قريب.

هذا الصباح قرأتُ قصيدة لشمس الرحمن البنغالي، عن قميصٍ بلون زهرة الخشخاش، بحمرة الشمس الغاربة . قميص يخفق في سماء زرقاء صافية، خاطته أخواته بأوتار القلب، ونشرته أمّه في الفناء المشبع بضوء الشمس. قميص أحمر يخفق في الشوارع والساحات، في الفرح والحزن، في الحضور والغياب .

هذا الصباح قرأتُ قصيدة لسيو جيؤونغ جو الكوري، عن أبيه الخادم، الذي خرج من البيت، وجدّته الواقفة عند الباب تنتظر .عن أمّه الحامل، تشتهي حبّة مشمش خضراء .عن هو الواقف بين جدران طينية متهالكة بأصابعه السوداء .عن جدته الذي أخذ منها لون شعره واتّساع عينيه .عن جدّته التي أبحرت ولم تعد. هذا الصباح ما يزال في أوّله، وكلّ هذا الحزن الملقى في الأرض المغطّاة بأكياس البلاستيك، تخفق في الريح مع قميص أحمر وطفلٍ ينتظر جدّته التي أبحرت.....

الطيور تتقافز

هذه الطيور التي تتقافز تحت الشجرة، أوراق شجر يابس طوّحت بها الريح الموحشة.

هذه المحارات الملقاة على رمل الشاطئ، زفرات الشعراء الغرقى.

اليد التي ترمي حجراً في الماء، لا تقطع صلتها بالحجر، تجعله يتدحرج على السطح الناعم قليلاً، ثم تغوص معه إلى بيت الحجارة والأصداف.

العين التي تحدّق في الحجر الساقط في الماء، لا تقطع صلتها بالحجر، تدلي بكلمة تشبهه، ثم تنتظر صعوده إلى أعلى وأعلى.

الحجرُ يفردُ جناحين يأخذانه إلى مطر هطّال وآنية مرمر وطريقٍ مشجّر وعتبة وباب،

غبار على المصباح

"الأرض صخرة

لا تشيخ ولا تجوع." قال عاشور

"الأرض

نملة مرّة،

وكالطود مرة أخرى" قال ابن الوردي

"سأجزّ العشب على الصخرة العالية،

أمّا تلك البيوت الغارقة في الظلال،

سأعلّق على حيطانها، صور الفتية الغافلين.". قال عاشور

"خيط الفرحٍ اللمّاع، أنا روحُه الجيّاشةُ

الشجرات في أعالي الجبال، أنا كتاب خرافاتها

الغبارُ على المصباح، أنا حامل جسده حيث حطّ." قال ابن الوردي

"سأدفعُ بهذا البحر وهذا الجبل ،

إلى مساء شاسعٍ." قال عاشور

"ليس هذا حدُّ البحر، حدّهُ في قلب السماء." قال ابن الوردي

كانت النافذة

في الصباح ،كانت النافذة تهتزّ قليلاً، والولدُ، يتأرجح تحت شجرة اليوكيلبتوس.

في الظهيرة، كانت اليدُ ناعمةً، الشهقةُ حارقةً، الصدرُ وردةً، ورعشةُ الشفتين غمرتها مياهُ البحر.

في المساء، الراحلون، ينتظرون الظلَّ بين الماء والسماء.

في الصباح،كانت النافذةُ تطلُّ، على غابة ونهر.

امتلأت الغابةُ بالعشّاق، والنهرُ بالأسماك.

ضجّتْ الغابةُ بأصوات الأطفال، والنهرُ بطيور اللقلق.

في الليل، عادت الغابةُ إلى سكينتها، والنهرُ إلى حبيبه القمر.

أهكذا إذن ترقص في حقلنا القبّرات!

في الحلبة، الفرسُ والفارسُ.

لا تغضب، إن غادركَ البحرُ، وانسابت حبّات الهوى، بين أصابعك.

إلى متى، تدفع بالشجى إلى حافّتة القصوى.

رويدك يا شاعرُ، وجوه الأهل على حائط الليل، والعصافير تؤنّس وحشتك.

لا تلتفت، إلى وجهك على الحجر، سيأتي وقتٌ لا محالة.

الشايُ على الطاولة والأحاديثُ دافئة!

في الركن البعيد، ظِلُّ المرأة يرتعش.

سيأتي وقتٌ لا محالة، الكأسُ على الطاولة والأحاديثُ كرات ضوء.

الريح، لامست خصلة الشَعر، القاربُ والقبطانُ، ابتسما واختفيا في الأفق.

أهكذا إذن، تميل الشجرة على السوسنة وتتلذّذُ الشفاه بالشفاه؟

أهكذا إذن، ترقص في حقلنا القبّرات؟

سترة الشاعر

النسّاجون والنسّاجات:

قطفوا كلّ ارتعاشة، رمتْ بها قلوبهم.

قطفوا غاباتهم ومطرهم وحيواناتهم.

قطفوا رغيفهم عسلهم سمنهم ونومهم.

في سترة الشاعر، مالينخوليا، قد تخفيها زهرة حمراء، أو تتباهى بها صرخة حجر.

ارتجال عازف الترمبيت

يدان تسوّيان، رداء البحر.

يدان تربّتان، على كتف الغابة.

حجارةٌ في البحر، تُحدّثُ عن سفنٍ جاءت ورحلتْ.

بذورٌ في الغابة، تحدّثُ عن كونٍ جاء ورحلْ.

إصّيصُ وردٍ، على الطاولة.

شجنٌ، يُطلُّ من وراء النافذة.

سماءٌ زرقاء، تتثائب.

السماء البعيدة

في السماء البعيدة، الحمحة حمراء، الفراشة تلويحة يدٍ طليقة.

في السماء البعيدة، الأغاني أوراق تين، الشرفة،ضيّقة.

هذه أحلامي، التي تركتها في صندوق طفولتي.

الرأس يبكي، لكنه لا يملك جسداً، يأخذه إلى الشوارع.

الرأس ،خالٍ من الضحكات، خالٍ من الغضب، خالٍ من الحسد.

الرأس، يعرف أنّ أثقاله كبيرة.

.

سوناتات منتصف الخريف

1

سأتحدّث عن الحمامتين الواقفتين على سعف النخلة
وعن المرأة والرجل الراقدين تحت النخلة

ما الذي يجمعهم؟ لعلّه الخريف جاء
ثقيلاً برياحه المتربة ومطره الراعد

لعلّه الكثيب القريب يسترق السمع لشغف عتيق
أو لعلّها تلك البقعة الصغيرة الملساء من السماء

تسرق من المرأة جمال نهديها ومن الرجل حيرته وحجر لذّته
يحطُّ المساءُ خفيفاً على جسد النخلة، يربّت على أنفاسها في صمت

تخفق بجناحيها الحمامة، يخفق بجناحيه رفيقُها
تقترب سحابة وحيدة من شجن عظيم، تقترب من قلبيهما الراجفين

نعاسٌ رقيقٌ عذبٌ يغمر النخلة، يميلُ قليلاً، وتهدأ الكائنات
ليس زلزلة ما يحدث، ليس اقتتال فصول وفيض شهوات وحشية

خفقة أجنحة تحوّم عالياً في الفضاء، سيقان ترتجّ
حسبُ شبق يرغب في فضّ اللّحظة من غيبوبتها الأبدية

2

يدفقُ النهر من النافذة، يسيل في صالة الجلوس
ماؤه لا يبلّل باقة الزهور على الطاولة

ولا يميلُ بخفّة على الستارة القرمزية
لكنه يقترب رشيقاً من الراقص النحيل فوق السرير العريض

ما تفعل امرأة نعسانة في صالة جلوس، آخر الصيف؟
ما يفعلُ حامل الكاميرة واقفاً عند عتبة البيت؟

التفّاحات سرحانة في الصحن الأزرق لا ترتعش يد المرأة،
حسبُها أن تمرّر أصابعها بين خصلات شعر كثيف

نافذة الشقة البرتقالية في المبنى المقابل أيضا سرحانة
مقفلة شرفات القصائد، شاسعة دندنة الأغاني القديمة

تحت الشرفة، يقف شرطي المرور حزيناً
الجريدة الصفراء تطوّح بها الريح

"ثمّ ماذا؟" يقول الفتى في أوّل الشارع
يمرّ بائع الخرّوب على درّاجته خفيّاً، لا يراه أحدُ

3

عزْفُ الكمان أرجوحة خشبيّة في الهواء
رجل وامرأة يرقصان في بستان المساء

عزْفُ الكمان صراخ حزين في البرية
ظلال شاحبة على شفة بئر وحيد

عزفُ الكمان جثّة مرميّة في بيداء موحشة
صفير رمال تجلدها الريح الكئيبة

عزْفُ الكمان تميمة على ذراع عجوز
وشوم ترحل بين وجوه حرقتها الشمس

في السكينة، يجلس العازف رافعاً يده إلى السماء
في الصمت، يدفع بشهواته إلى بيضة الوقت

شيئان يسكنان في الحجر: العري والكلام
إذا عَزَف الكمان خرجا من الحجر وسكنا الحيرة اللاهبة

عزْفُ الكمان يغمر الأرض والسماء
على كتفيه تقف الطيور تغني موتى في أوّل الطريق

أيّ الآلام أنتَ؟!

أَلمٌ على الوجوه،

كأنه كسف عصارة سمسم.

شيءٌ ما سوداوي المزاج، في العالم السفلي

يحمل ناره معه، أينما امتدت

يدٌ في جراب ليلٍ موحشٍ

أو ارتجّت في صدر القتيل العبرات.

أَلمٌ، جارُ ليلٍ .

أَلمٌ، جارُ قنفد،

يلهث بصوتٍ يفيض على أركان الأرض

يُعيد بقدرٍ روحَه وبقدرٍ روحَ وردة.

له في السماء اسمٌ

له في القفار ذئاب تعوي

وله في البحر صيحة عالية.

حديث هذا الصباح

تغتسل بماء البئر المالح، كأنك تملك قطعة من البحر القريب منك .ثم تشرب من قنينة ماء النبع العذب، النبع الذي لم يبق منه إلا الاسم. ثم ماذا ستفعل في يومك غير أن تشهد فيه تناطح الساسة الكباش، والمحللين السياسيين النعاج. أحقًّا، البرابرة واقفون على الحدود؟!

ليس لك اسكندرية كفافيس، ولا هرر رامبو .ليس لك إلا هذا المستطيل من الأرض المغطاة بالغبار وأكياس البلاستيك، وكمامات الكوفيد. القصائد أيضاً تذوي في البلاد الموحشة .

ثمّ ماذا؟ صيادون يكسرون عظام الأسماك الطريّة بالديناميت!

حديث أوّل المساء

هذا قدح شاي على كفّي!

رأيتُ كيف يأخذ الفخّار من الزنجبيل خوفه، وكيف يربّتُ على شاي الجبال الطريّة، بوداعة الأم .حبيبات الرمل التي لامست عيدان الحبق، وراقصت نسيم الفجر، تعلمُ، أنّ في البراري تبرقُ شهوات الندى، مثلما تبرقُ أحلام البنات الصغيرات على خيط الزفرات .تعلمُ أنّ على سرير الكلمات تتفتح الوردات .وتعلمُ إلى أين ترحل الرائحة بالغدو والآصال؟

جردُ النصف الأوّل من هذا الصباح

1

بحثتُ عن ترجمة انجليزية لرواية السنغالي الحائز على جائزة غونكور الفرنسية المرموقة هذا العام: محمد مبوغار سار، لكني لم أجد له إلا رواية: الإخوان المسلمون .

2

ترجمت قصيدة قصيرة للشاعرة دوروثي غروسمان، ثم مسحتها.

3

سقيتُ شجرة الجهنيمية، نبتة عيون الصبيّة الحائرة، وشجرة التين التي زعلت منّي حين – عزقتُ تربتها– فأسقطت كلّ أوراقها !حككتُ جذعها بظفري، أتحقّق أنّها حيّة لم تمتْ . لكني لم استطع تقرير أيّ شيء! اعتقد في جسد شجرة التين، يتبادل الموت والحياة الخطوات. بعضها مسموع، وبعضها الآخر أخرس كزبدٍ في فم الموجة!

4

وقفتُ قبالة البحر، أزرق كان، مثلما كانت السماء أيضا زرقاء .حدّقتُ في بضع نوارس بيضاء تحلّق في الفضاء، فوق الشاطىء .مناقيرها فارغة.

5

انقطع التيار الكهربائي مرتين .فكّرتُ ماذا لو ينقطع الغناء من حيوات الناس؟!

ساعة الحائط

هذا الصباح تذكرتُ ساعة الحائط في بيتنا القديم .كنتُ في الثامنة من العمر، وكانت من خشب قديم ربما ماهوجني !قاعدتها طويلة وأضلاعها حادّة .اشتراها اخي من محل بيع الأشياء المستعملة، جاء بها على ظهر شاحنة صغيرة، ربما كان سائقها من يفرن.

وضعها في الدار الكبيرة، اسندها على الحائط، المواجه لوسط الحوش المطلّ على السماء الكبيرة. كانت تدقّ بحسب الوقت، وعند منتصف الليل، تدفع بالدقّات الـ 12، واحدة وراء الأخرى إلى صمت الليل ووحشته.

ما تفعل عائلة بساعة حائط تدقّ روحها كل ساعة؟ ما يفعل أخي كلّ صباح، يلتفت ملقياً ابتسامته عليها، واقفاً عند الباب، قبل أن يغرق في صخب الحياة؟!

أصوات خارج الغرفة

هناك أصوات خارج الغرفة، خافتة كسقوط حبّة مشمش،

حادّة كرفرفة أجنحة.

هناك ثلاث حبات قرفة في قعر كأس الشاي.

هناك أيضا فكرة كتابة قصيدة عن شتاء تبدأ هكذا:

(شتاء خجول، يجلس أمام نفسه،

شتاء يأتي بالشمس متأخراً،

شتاء له ألف عين.)

يمكن العودة مراراً لهذه القصيدة

من حقل الرياضيات

من حقل الفلسفة

من حقل الغناء

من حقل العبادة

من حقل السجن

لتلد عدداً كبيراً من القصائد

تكفي لتسميد حقل قرنفل، قبالة بحر صبراتة.

الشجرة

الشجرة انحنت على الوادي

حطّتْ يداً في الماء القادم من تاسيلي

العجوز الجالس على الشجرة يتساءل:

من أين تأتي رائحة النحاس الحامضة؟

هل حقّاً يسمع أصوات خفق الأجنحة الكبيرة ؟

هل حان الوقت لهذا القلب أن يغطس في الماء الجيّاش؟

الشمس صارت بعيدة   البيت أسفل الوادي

بردت ناره، وجدرانه   تردّد أصداء حياة قديمة!

في مديح الأربع عرصات وبقيّة الحارات في مدينة طرابلس القديمة

الكمان على الكتف، الخلخال يحيط بالكعب، له أن يفيض بالألحان ولي أن أدقّ بقدميّ أرض هذا الحوش الضيّق إلى آخر الزمان!" قالت الفتاة محدّقة في وشم على ظاهر اليد.

الشمس المنعكسة من عتبة الجامع، تسقط على لفّات الساتان الأحمر، بينا يد الرجل تسقط حبّات المسبحة في تناغم حلو مع أغنية عبد الوهاب: سهرتُ منه الليالي.

كم مرّة مشى في هذا الزقاق؟ كم مرّة خدّرته رائحة طبق الحرايمي من نافذة عالية؟
كم مرّة خفق قلبه أمام بابها؟
هو ليس أكثر من ولد يخاف الشوارع الواسعة.

نوستالجيا أوّل الخريف

سيقولون سكران مجنون، سيقولون غير ذلك .لكنك تعلم أنّ شجرة التين لن تطرح ثمارها دون أن تشم رائحة نَفَسكَ، أنّ السواقي في شَراكات الطويبية لن تفوح بالحبق مساء .لن تكون رقصة الفلامنكو آخر الرقصات ولن تكون آهات المغنّي في مرزق آخر الآهات. الصبر ليس جميلاً فلا تصبر. آنَ الوقت لتتعلّم عزف الناي! البعيد

نخلة قريبة من البحر

نخلة قريبة من البحر

لا ظلّ يحميها من شمس حارقة.

الطيور لا تقف على سعفها

سعفها شاحب، عطشان

أحيانا يأتي كلب ضال، يرشّ بضع قطرات عليها

هذا كلّ ما تشربه نخلة قريبة من البحر!

قاسياً كان الربيعُ، في هذي القفار القاحلة

(طريقك يقف عندك، فلا تقم لأحدٍ ولا لكتاب، ولا توقد قنديلاً في خلوة
لن يصل الضوء ضجيع القبر، طريقك يقف عندك.
هي طيرةٌ في أنفسكم، وهي شعيرةٌ لنا.
جدارٌ بيننا وبينكم، لا تركبوه ولا نركبه، لا تثقبوه ولا نثقبه.)
(ابن تيمّة، بتصرف)

وقتكَ لا يتّسع لغير القتل
لكلّ حرفٍ نوره وعتمته لكلّ مفتاح ثلمتهُ وقفلٌ يتقلّبُ فيه
لا وقت لك لتلتفت وراءك فما خلفك مفضوحٌ
هل امتلكتَ بيْداءك بعدْ؟! اقتلْ! اقتلْ!

امتلأتْ الأرضُ بنواحٍ ثقيلٍ نزل من السماء دمٌ غزيرٌ
الموتى على ظهور الخيل الموتى تحملهم العيرُ إلى وادي النسيان
الفيافي خؤونةٌ حصباؤها باردةٌ موحشةٌ
عطشٌ مُرٌّ ثقيلٌ، عطشٌ يسلّ القلوبَ من الصدور
من تخلّف ماتَ مَنْ تقدّم ماتَ الموتى غابةُ أغنيات
الأرضُ التي أرتوتْ بالدم خرساءُ
الأرضُ التي اغتربتْ عَلِقتْ في حلوق الطيرْ
الأشجارُ لا تعطي ظهورَها للريح لأنّ خاطراً عن البحر يلوحُ من بعيدْ!

شمسٌ لا تشبه شمسهم، تقطّعتْ بين ليلين طويلين، كما تَقطعُ يدٌ غريبةٌ سُرّةَ وليدْ
للقاتل نهارٌ وللقتيل نهارٌ، لماذا إذن كلُّ الكلام، ميتٌ وموحشٌ وغريبٌ؟!

■

على سيْفِ بحرٍ، على رمْلٍ عالٍ،

سحالي،

خنافس سوداء وملوّنة،

عبقُ صباحٍ،

لمعانُ ندىً

يمشي بينهما يتصبّب عَرَقُ جبينه يراه دماً ويشمّه دماً

الموتُ كالمطر، يهطلُ ويهمي وينهمرُ

قاسياً كان الربيعُ، في هذي القفار القاحلة

أخذوا جرحاهم وقتلاهم معهم النسورُ الجائعةُ التي تحوّم

تنقرُ عيونهم وجنوبهم

دمٌ غزيرٌ يسيل على رملٍ لا يشبع أبداً

■

أُخْرُجْ

امضِ حتى تُلاقي كثبانًا   عليها بومٌ وشميطٌ وأغربةٌ موحشةٌ.

■

وادٍ تركض فيه خيلٌ، عيونها عمياء، وصهيلُها قفارٌ مالحةٌ.

وادٍ يسيل فيه الماء رقراقًاكعطش لا يبرح مكانه.

تُؤنسُ وحدتك بوادٍ آخرهُ بحرٌ، على ضفّتيه

دُورٌ وحكايا تتسلّلُ مع الراحلين بين أخفاف الإبل.

كم من مغارةٍ لا يصلها ذو جناح؟

كم من مغارةٍ هي سريرُ ريحٍ؟

كم من مغارةٍ سقفُها سماءٌ قديمةٌ؟

كم من امرأة تأكل دم يديها، تعوي كذئبةٍ جائعة؟

كم من حاجٍّ لم يرَ آخرَ الطريق؟

■

في هذه القفار، في هذه الثنايا المجروحة بالظمأ

عيناه لا تريان سوى، ناقة سائبة أو فريسة،أو قتيل

الصباح معتمٌ ، كأنه خرج من شمسٍ أخرى

بلا ذراعين ولسانُه لسانُ أفعى

■

قالت:

الليل مفتاح غيب

يرانا،

يسمعنا،

ينتظرنا في عطفة طريق أو على وسادة

لكلّ امرء ليلُه ورؤاه   لكلّ امرءٍ لغتُه المشتهاة

قالت:

من الجبل تسقطُ صخرةٌ هائلة

من الجبل تسقط الهموم، تدخلُ البيوت بيتًا بيتًا

لم تكن تعلم أن الخراب مستلقٍ على قمّة جبل

على لسانه لغتُه الجديدة، وفي يده سيوفٌ تقطرُ بالدماء
سيدخلُ ورجالُه عليكم، موتٌ يحاصركم في الشوارع والأزقة

ستعطشون ولا ماء
ستجوعون ولا طعام
ستموتون ولا قبر
ستفرّون ولا راحلة
ستستغيثون ولا مجير.

رجلٌ يعرف كيف يقرأ
ما يقولُه التراب
ما يلوّح به الحجر
ما يفشلُ في إخفاءه الشجر

■

صاروا يرون قتلاهم وأسراهم في منامهم
صار القتلُ غيلةً درجةَ قربى وعلامَة محبّة
سيوفٌ تصلُ إلى سقف الدار تقطرُ بالدم

ساكنو السموات مشغولون بعدّ القتلة والقتلى
بوضع الغنائم في صحائف لا يسقطُ منها شيء
لم يُطفأ لهم قنديلُ ولم تُغمض لهم عين

■

بيت شِعر يجيرهم من جوع   أو من قَطع عنقٍ وسبي

هم لا يحلمون بشيء   لا شيء لديهم، الغربان أعقل منهم.

العيرُ تحمل أحزانهم في البوادي والكثبان   فَرِكَ البعرةَ في يده، عرفها، أليفةً كإسمه!

■

لمئات السنين تسري الحكاية مسرى الماء في الشجر
عنْ مَنْ قتلَ منْ، عن الراحلين إلى الجنّة، والراحلين إلى سقرْ
عن الأخ قَتلَ أخاه، عن الإبن قَتلَ أباه، عن الأب قَتلَ ابنه
جميعهم جذرٌ واحدٌ، غارقٌ في البداوة، غارقٌ في التوحّش
جذرٌ يُسقى من دمائهم، ليل نهار

■

امرأة نزيعةٌ لم تدري أن يداً

ستتسلّلُ، تُخلّلُ درعها بشوكة من ورائها وهي تنظر لحليّ الصائغ

حين بانت عورتها:

بانت عورةُ قومها، تعرّى الدمُ في ساحة السوق

تدحرجت رؤوسٌ على ظلّ سيفٍ

لم يتوقف القتّل في ذكراهم، ولا السبي في نسوانهم

اللاتي تقسّمن بين الرجال

■

الطمع له سيقان تنزل من الجبل   الطمع أبوابه تفتح على مقبرة.

جاسوسٌ لكلّ وقتٍ   جاسوسٌ لكلّ حالٍ وأمرٍ، لا تعلمه

قد يكون في ثيابك

قد يكون ناضح شعيرك

قد يكون عسسًا على عسكرك

قد يكون أنت سيّد القوم!

■

رجلٌ أعمى، يده تقبضُ على تراب   سماؤه غبار شكّ.

كلٌّ واحدٍ يحسب أنّه إلى إلهه أقرب!

كأنّ الهواءِ سدّ، وسهامي ريش غربان   لا السدّ سقط، ولا السهام تضرّجت بالدم!

ما حاجة النساء للدفوف ومديح القتلى؟!

الموت على إيقاع الدفوف موت عظيم.

■

كلّما أطلّت من فتحة بين خشبة الباب   بين تنهيدة مبلّلة

رأت بين يديه قطاف كرمة   هي التي تشتهي حبّة عنب.

لا تسألينه ما شأنه بحديدة   لا تسألينه عن لمعة الضوء على الحائط

هو في خلوة حبسٍ ويداه مغلولتان   لا جدوى من غلقِ بابٍ أو عسسٍ يتنصّت

بيوتٌ تهفوا لطارق ليلٍ أو جائعٍ بردان   القتيلُ الذي سيكون، على سريره أبيض كقطنة.

كلٌّ يريدُ أن يغمسَ يدَه في دمه، ويدخلَ بها الجنّة
مَن زاحم على قتله أعشى. كانت رائحة الدمِ عينُه

قال عرفتُه ، كان وجهه كالقمر سمعتُ بأذنيّ هاتين، خشّة السيف في بطنه المملوءة خمرًا

من عادة القاتل الهرب من عادة القاتل أن يكون له ألف عين
من عادة القاتل أن لا يسير في وسط الشارع من عادة القاتل الهرب

امتلأ المكان بأصوات تزعق خائفة قاتلٌ أو قتلةٌ يهربون
انهضوا أيّها الموتى النائمون ليلُهُم عدوّكم اشعلوا سعف النخيل علّكم ترونهم يهربون

يجرون خائفين، لا ينظرون وراءهم ظلالهم الطويلة تلحق بهم
حتى جعلوا النهر غطاء

ما جاء أحدٌ يسأل عن طعام ما جاء أحدٌ يسأل عن غَرفة ماء

يومٌ لا ملائكة فيه لا رجال بيض لا خيل بلق
سماء فارغةٌ ضيّقةٌ، وحسب!

في الحلقة في مكناس

في الحلقة في مكناس،

كنت عازف التعريجة،

وكان طائري يحوم أعلى المدينة.

أمد اللحن بين شمس وظلّ .

أعلم أين بيت الشهقات .

أين تنام الزرقة

وأين تفيق السموات.

لا عليك يا نفس،

الحيطان عالية والشوق شديد

في الحلقة، في مكناس ،

كنتُ بين المنشدين

ريشة تدوّم في الهواء، لا تعرف لها مستقرا.

قلتُ وأنا أنظر إلى القوم من أعلى :

من أيّ حمادة يأتي هذا الوادي الحزين؟

من أيّ أرضٍ تفيض هذه الأنسام بالعطر؟

من أيّ وديعة تخرج هذه الأرواح السكرانة؟

ثمّ كأني مستلق تحت شجرة خرّوب، قدامي تجلس أطيار وأنعام أحدّثها وتحدّثني

ثمّ كأني أركض في وادٍ حجارته من ذهب وفضّة، أشجاره تنطق بألف لسان

ثمّ كأني تخطّفني نعاسٌ إلى حديقة فيحاء

ثمّ كأني قبسة نارٍ في خلاء تنتظر النبي الحيران.

أيّ موت

الموت أوراقٌ في أغصان شجرة

أو أعناق فقّاع تتدلّى من سفح جبل

أو زفرات تطفو على سطح ماءٍ

أو طائر ليلٍ قصّتْ جناحيه شهوة صيّاد

أو دقّات طبول تتقلّب تحت الكلمات

أو طفلٌ ينهض مبكّراً لضوضاء النهار

أو طفلة تقضم حلوى العجائز في العشيات الطريّة

أو خيّال غضوب يرحل إلى فلوات بعيدة

الموت أنفاس تتنقّل على الأنامل كما تتنقّل الحدأة على أشجار الطلح

أيّ موت تختار يا لاعب النرد؟

أيّ موت تضعه في خميرة خبزك يا غريق النهر؟

أيّ موتٍ تضعه في رجفة الناي يا صاحب القصب؟

أيّ موتٍ ستنهمر به السموات على أرض الخراب العظيم؟

أيّ موتٍ يشرب النبيذ في حانة القمر المشقوق؟

خلخال الصبيّة الطاهرة

تشتبك الأيدي لتصنع الدائرة   الأشجان تطرحُها في قفار شاسعة

الأحزان تبني بيوتها في كهوف الجبال   الأصوات، حسبُها أن ترجع إلى خلخال الصبية الطاهرة

هلّ تنضحُ الأجساد بالعسل، إذا استقام المعنى وفاض بمائه الجدول؟

هذه الليلة، سأكتفي بورع الشيوخ،

أصبّ في كأسي، الشاي المنعنع   أرقب كيف تتشظّى البلاد بأظفارها.

ارقصْ يا فتى، ارقصي يا فتاة   قبل أن يفرغ الإيقاع من رعشة موته!

يا غريبُ، هذا هو الصمت العميق

1

تتبع المنحدر الصخري، وحيداً   طائر يحلّق غير بعيد

سحابة بيضاء شتّتْها ريحٌ   قد تكون أتتْ من صحراء خائفة

أو من بحرٍ غدّار!

كيف تأخذك خطوات منسيّات   إلى ديار ليس فيها غير العذاب؟!

تتبع الدرب المعشّب وحيداً إلا من قنفدٍ جوعان   بقايا طعام لمسلّحين غطّاهم ليلٌ موحشٌ،

قد يكون أتى من بندقية فتى أو في طيّارة مسيّرة

كيف ترفع يديك مستسلماً لقاتلٍ وقتيلْ.

هو الفزع الأكبر إذن   يقف في أوّل الطريق وفي آخره.

البحر قريب يا غريب   تقدمّ وحيداً   ادفع بالكلمات الخرساء

اطرحها على الحصى عارية   انتظرْ راية تخفق أو قبسة نار

تقدّم يا غريب   هل تسمع صهيل الخيل في الوادي؟

هل تسمع خرير الماء بين الصخور؟

هل تفهم كيف تتبدّد ثياب الموتى في الفيافي الآن؟

2

من كسرَ تاجكَ يا ملك؟

ستحلم بحياة مكسورة أبداً

ستأكل خبزاً مكسوراً أبداً

ستشرب في قدح مكسورٍ أبداً

ستنام على سرير مكسورٍ أبداً

ستنام مع ملكة مكسورة أبداً

ستفرح بانتصاب قضيب مكسور أبداً

ستحمل امرأتك بأطفال مكسورين أبداً

كلّ ركن في بلادك مكسور أبداً

كلّ شعبك مكسور أبداً

حتى موتك سيكون موتاً مكسوراً أبداً

حتى البئر الذي غادرته الإبل صارت شفاهها مكسورة أبداً

ماذا ستأخذ من صحراء مكسورة أبداً

من كسرَ تاجك يا ملك؟

3

الحصان في حظيرة، الحظيرة في ذيل شهاب خاطف

الأوراق في جبأة، ينتفض الغبار، يصعد في انعكاس الضوء

فساتين النسوة الواقفات في الماء، صفراء، حمراء، خضراء.

الجالسون في العربة الخشبية، ضحكاتهم خفيفة

نافخ البوق عطشان، نادلة المقهى نعسانة،

وحده الغريب يتابع شهوات تتقلّب تحت الشجرة.

لمن تزيّن سيفك يا غريب؟

أنت الذي لم ير الوردة تتفتّح ولا عبيرها يملأ خزانة العشيقة

لم ير العصفورَ يحلّق بجناحيه المزركشين فوق شجر الخروب.

قلتَ لي: رأيتُ وجوه قتلاهم وسمعت أنفاسهم تذوي في بريّة وحشيّة

لكني نسيت أن أضع النجمة الأرجوانية على أخمص البندقيّة

نسيت أن أرمي خوفهم، شغفهم، جبروتهم في خشب محرابهم.

هل تعرف كيف تشرق الشمس بلا موسيقى؟

أليس تشرق من جبل على رأسه طبل وأجراس من حديد!

4

كائناتُ الغابة تفرُّ من الغابة!

البيوتُ البيضاءُ على التلّ، تلوح كسربِ إوزّ في طريقه إلى الجنوب

الأعشابُ تنبت على الجدران، يكفيها زفيرُ غيمةٍ عالية،

يكفيها أجسادٌ منهكةٌ تقترب بطيئةً من القمر،

يكفيها سرابٌ معلّقٌ على حجرْ،

يكفيها شمسٌ، وعويلُ ذئبٍ ابعدته الذئابُ.

سيصل الجنودُ إلى القلعة ليلاً،

سيصل الساسةُ إلى القلعة ليلاً،

سينهمر مطرٌ باردٌ على القلعة ليلاً،

لناكل معاً حساء الفجيعة صامتين

لقد ذرّتْ أشجارُ البرقوقِ أحلامَها في الريح،

لقد عادت السناجبُ إلى بيوتها في الأعالي

وامتلأتْ شِراكُ الصيّادين بالظِلال.

5

هل ترى العالَمَ في رأس الحلزون؟

هناك حيث يرقد العجوزُ والقطُ الأربشُ

تحت الغيمة السوداء حيث يكبر المطر.

من الرمل حيث تضع السلاحف بيضها

يخرج الصغارُ، يركضون إلى شميم بحار بعيدة

تقطع السماءُ من جسدها أزرار الليل.

على الصخر تنام الوعول وأبقار الوحش تحدّق في الشمس

في الصحن الخشبي تنثال الذكريات هشّةً رقيقةً

شجيّة وعصيّة شهوات الشجرة.

يقف العازف مقلوباً، على الألحان أن تنهل من عين الألم

عري الكهل يفترش الأريكة، يبقّعها بالأبيض الشاحب

يلتصق الوله بالجدار كنارٍ على عود قشّ،

هذا هو الصمت العميقز

لن تجد الوديعة في بيت الفراشات

لن تجد صحن الأرز على طاولة المطبخ.

6

تنزلق الأحزان على جسد الغريب، مثلما

تنزلق أسراب نملٍ على صفيحة زيت

هكذا تموت الأشواق، بلا ظلال ولا أسماء.

لا بدّ من الرحيل، ألا ترى اهتزاز طائر القصبي على حبل الغسيل!

لا بدّ من ملء الثقوب في قلوب الحجارة، في قلب الغريب وكأسه.

غابةُ البطّوم رجعُ أصداء الذئاب،

رجعُ أصداء حفيف الأشجار العالية.

هناك، فوق التلّة العالية

ألا ترى الشمسَ عطشانةَ والوادي عُريان.

الزجاجُ كلّما حاول أن يعكس حنينَه للكثبان

تنهضُ من خاصرة الليل ألفُ وردة

حزنٌ كبيرٌ بين يدي عازفٍ يرمّمُ بالصمغ أغانيه المكسورة.

مطرٌ غزيرٌ يسقطُ، وشومٌ على الحجارة تلمعُ

كان على الوشم أن يكون بألف لسان.

خرج على قومه عارياً يضحكُ ويبكي

رجعتُ إلى ذات البقعة، محطّ قدمٍ أو أكثر، قبالة البحر الهادر
أبحث عنها، نبتة الودّينة، التي رأيتها قبل سبع من السنين.
أين رحلتْ؟ هل قطفتها يدا مهاجر شاعر؟
مَن سيطعم السلطعونات؟
من سيبهج الصياد، يدخل الماء بساقين نحيلتين؟
ألمحُ فوق الكثيب الخفيض، زنبقنين.
يا لثقل هذا الشجن العظيم!

مِن أين تأتي الوِدّينة بزهرتها القرمزية؟
الودّينة التي فقدت سيقانها في الهجّة الأولى إلى البحر
وعاشت عطش الصحراء العظيم
هي الأنثى في نباتات الساحل
اتخذت أوراقها اثداء ترضع بها البحر في مدّه
وتطلقُ في الليالي المظلمة صيحاتها الموجعة

هل تعلم لأيّ شيء، الظلال التي في الصحراء؟

هي مخابىء للحكايات التي تتسرّب من بيوت المدن والبلدات .

انظرْ كيف تتلوّى الأفعى، كيف يقفز اليربوع، وكيف تبلّل السحلية لسانها!

تلفّتْ حواليكَ، هل ترى من اثر لشيء؟

تلويحة اليد، تشظّتْ في حبيبات الرمل، شيئاً لمع ثم خبا!

مدّ يدكَ، ادفع أيّامكَ أو شقّها نصفين،

ضع خيط النور في حلقة الوقت

ثمّ انتظرْ!